مجلة العلوم الإنسانية — عدد 34 - ديسمبر 2010، ص.ص.277- 308

قراءةٌ مُعَاصِرَةٌ في التّفْسِيرِ الإِسلامِيّ لآياتٍ عَنْ بَنى إِسْرَائِيل في سُورَةِ الإِسْرَاءِ

ملخص

إنَّ سُورة الإسراء، بآياتها ذات الموضوع الإسرائيلي، في مقدّمتها ونهايتها، تختصر بشكلٍ عجيب، التّاريخَ الأرضي لبنى إسرائيل، وتضَعُنا هذه الآياتُ أمامَ شريط مَرْئِيّ،بالمعالم البارزة والأحداث الكبرى في المسيرة التاريخية للشّعب اليهودي، في الماضي والحاضر والمستقبل، بدءاً من سنة 7هِجْريّة:(غَزْوةُ خَيْبر) إلى سنة 17 هِجرية: (الدُّخول العُمَري لاستلام القُدْس من أَيْدي المسيحيين)، إلى منتَصَف القرن العشرين للميلاد:(بداية فَتْرَةِ الكَرَّة اليهُوديّة على المسلمين)، التي بلغت أَوجها بعودة القدس إلى أيديهم، مرَّةً أُخرى.

إنَّ آيات الإِسْراءِ، التي سنعرض إلى تحليلها هنا، ليست، فيما يبدو، إلاّ تاريخاً للظّاهرة اليهوديّة، مع هدايةٍ إلى الطُّرُق المثْلى للتعامُل معها، وذلك بوضعها الإسلامَ أمام خطورة الوعْيِ الإسرائيلي المضادّ له في جميع العصور.

إنه صراعٌ فكريّ إيديولوجيّ، وعسكريّ مسلَّحٌ معاً، يبدو، حسْبَ ظاهر الآيات، ممتدّاً في أغوار المستقبل، كان قد دشّنه نبيُّ الإسلام (ص) سنة 7 هـ ، وما يزال مستمرّاً قائماً حتى الآن، وفاقاً لظاهر النصّ القرآني، وللواقع التّاريخيّ كذلك.

لقد كانت هذه الآيات المستشرِفة لهذا الصِّراع، صراع الإسلام مع اليهود، عند نزولها المبكِّر في مَكّةَ وقبل الهجرة بسنواتٍ، حديثاً مستقبليّاً محْضاً عن تطوُّر الصراع في الأَزْمِنة القادمة، في حين ظنَّها المنهجُ التقليديُّ في التفسير حديثاً ماضَوِيّاً يقصُّ علينا تاريخَ الشّعب اليهوديّ قبل ظهور الإسلام بقرون، فاضطرب التَّفْسيرُ الإسلاميّ في فهْمِها وتفسيرها، قديماً وحديثاً، أَيّمَا اضطراب.

د. عبد الحميد بوكعباش

كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية
جامعة جيجل
الجزائر

مقدمة

Abstract

The Isra sourate along with its verses of Israeli matter ,in its beginning and ending, sums up wonderfully, the world history of the sons of Israel (bank Israel),and these verses put us in front of something like a video tape, with apparent highlights and great event in the historical course of the Jewish people, past, present,

© جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر 2010

and future,beginning from 7th year Hijri(the battle of khaybar)to17th Hijri :(the Omari entering to receive Elquds from the Christian hands),to the mid-20the century ad(:the starting period of the jewish conquest over the Muslims),which reached its apogee by the recapture of Elquds .

The(ElIsra) verses ,that we are to analyse here,are,as it seems to be ,only a history for the jewish phenomenon,with guidance to perfect ways to deal with them by putting Islam in front of the danger of the Israeli consciousness that opposes it in all ages.

It's an Intellecual Ideological clash,and whith it,armed and militarized,it seems , according to the apparent veses that it is extended to the future era.the prophet of Islam inaugurated it in 7th year Hijri, and it is still going on,in accordance and agreement with the visible side of both the Quranic text and the historical fact.

These orientalist verses of this conflict, the Islamic conflict with the jews in its early descent in Mekka and years before the Hijra,were real futuristic propheceis about the conflict evolution in the coming eras.

However,the traditionl approach of Interpretation,considered it as an archaic tale that tells us the history of the jewish people,centuries before the rise of Islam. and so, the Islamic Intepretation in comprehending and interpreting these verses,past and present,has been disturbed greatly.

دأب المفسِّرون وشُرَّاحُ النصوص والمؤرِّخون في الإسلام على اعتبار النصوص الخبرية، وأحياناً الإنشائية:(التّشريعات والأَحكام، حكْمُ الرَّجْم في القُرْآن مَثَلاً.)،التي تتحدَّث عن الكَوْن والتاريخ والمجتمع، نصوصاً ذات مضامين تَوْراتيّة، وذلك بسبب التَّشابُه البادي في هذه الموضوعات بين القرآن والكتاب المقدّس، فأحداثُ التَّوْراة ونبوءات ورُؤى الأَنبياء في الأسفار الملحقة بها،عدّها مفسرو القرآن والأَخْبَاريون والمؤرِّخون معانيَ تفصيلية وتأويلاتٍ عمليّة للكتاب، فيشكل إِسراءيليات شارِحة، فالتَّوْراة وأَسفاره وشروحه المتوالية حتى حادثة الأَسْرِ البابلي:(586 ق.م)، طالما اِعتُبرت، من لدُنْ سعيد بن جبير (103هـ)، إلى اليوم، تفسيراتٍ للقرآن،يُوقَفُ عندها ويُلتزَم بنصوصها، قبل التقيُّد والالتزام بظاهر نصوص القرآن ذاتها، فجاءت هذه التَّفْسيرات والشُّرُوح مخالفةً للواقع التاريخي والكَوْني،ومخالفةً لظاهر نصوص الكتاب في الوقت نفسه،والمفترَض أنهما منسجمان؛ وذلك لأنهما، في حقيقة الأَمْر،من مصدرٍ واحد:اللهِ،خالقِ الطّبيعة والكَوْن،ومقدِّرِ الوقائع والتاريخ،ومنزلِ الكتاب، الذي جُعل هذا العالم موضوعاً له.

القرآنُ خطابٌ لغويٌّ ذو معنى تداوُلي آني،يعاصِرُ أَوْ يتزامَنُ مع كلّ شارحٍ أو متفهِّم له، في أَيّة فترة من فترات التاريخ، وهذا بشقَّيهِ: الإنشائي والخَبَري معاً، من هذا المنظور فقد خاطبت سُورةُ الإسراء الصَّحَابةَ بما كان يجري في أيامهم ويشهَدُهُ حاضرُهُمْ، وبما سيأتي به مستقبَلُ أُمّتهم كذلك:(غزوة خيبر سنة 7هجرية)+(استلام عُمَر بن الخطاب القدس سنة17هجرية)،غير أنّ المنهج القَصَصِيَّ الحكائي، السائدَ أيام السَّلَف، في التعامُل مع نصوص القرآن، حوَّلَ آياتِ سُورة الإسْراءِ، ذاتِ الموضوع الإسرائيلي، إلى وثيقةٍ تاريخية من الكتاب المقدّس، تقصُّ على المسلمين ابتلاءات الشَّعْب اليهوديّ، في القرون التي أَعْقبتْ انهيارَ

مملكة سليمان في القرن التاسع قبل المسيح.

القرآنُ خطابٌ ذو معنى تَدَاوُلي، يُفْهَمُ حسْبَ السِّياق الثَّقافي والاجتماعي والعلمي، الذي تعيشه الذَّاتُ المفسِّرة،في أيّ عصر.

من هذه القاعدة التأْويليّة، المتّفَق عليها، ضمنياً، بين علماء القرآن والتفسير، اعتبرنا أنفسنا اليوم مخاطَبين بالنصّ القرآني، فبرز لنا منه في وجوهنا، معنى آخرُ له واضحٌ وجليٌّ، غيرُ مذكورٍ في تاريخ التفسير؛ لأنّ المخاطَبين بالنصّ القرآني هُمْ أُمّة الإسلام لا بنو إسرائيل.

وتحديد مَنْ هو المخاطَب بالنصّ،عامل هامّ في تحديد معناه، أمّا اليهود، فهُمْ موضوعُ الخطاب ومضمونه، وعلينا فهْمُهُ وتأْويله في ضوء سياقنا الحضاري الرّاهن وعلاقتنا فيه بالمشكلة الإسرائيلية، والإيديولوجيا الصّهيونية المتربِّصة.

ظنّ القدماءُ أنَّ تَاءَ الخِطاب وكافَهُ:(تُفْسِدُنَّ،لكُم)،يجعل من بني إسرائيل مخاطَبين بنصّ التنزيل، ثمّ قادهم ذلك الظنُّ إلى تصوُّر هذا النصّ القرآني جزءاً مقتطَعاً من التَّوْراة،باعتقادهم أنَّ الكتاب المذكور هو كتابهم، فهُمْ محور اهتمام منزل الخطاب:الله، أمّا ضمير جمع الغائب، الفاعل، والمجرور:(جاسوا، عليهم، يسوءوا.)، فمرجِعه أعداءُ بني إسرائيل، وأعداءُ اللهِ كذلك، وهنا مكمَنُ الخطإ التأْويلي الفادح للمفسِّرين العرب، وهذا لأنَّ النصّ جزءٌ من السُّورة القرآنية، والمخاطَبُ بها هُمُ المسلمون لا اليهود.

قال اللهُ تعالى: (وَقَضَيْنَا إلى بَنِي إسْرائيلَ في الكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ في الأَرْضِ مرتَّيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبيراً، فَإذَا جاءَ وَعْدُ أُولاهما بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنَا أُولي بَأْسٍ شديدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكانَ وَعْداً مَفْعُولاً،ثُمَّ رددْنا لَكُمْ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوالٍ وبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً،إنْ أَحْسَنْتُمْ أَحسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وإنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فإذا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا المسجِدَ كما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ماعَلَوْا تَتْبيراً، عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإنْ عُدْتُمْ عُدْنَا،وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصيراً.) الإسْراءُ/4- 8 ، ثمّ قال تعالى، فيما يبدو أنّه تتمّة للموضوع في آخر السُّورة :
(وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إسْرائيل أسْكُنُوا الأَرْضَ، فَإذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً.) الإسْرَاءُ/104.

مُلَخَّصُ تَفْسِيرِ المتقدِّمين للآيات:

يقول نصُّ الآياتِ:أَعلَمْنَا بني إسرائيل في كتابٍ نبيٍّ لهم، أَنهم سوف يُفسدون في الأَرض لا محالة:(لَتُفْسِدُنَّ)،اللاّم جوابٌ لقَسَمٍ محذوف لتأْكيد حدوث الفعل، الأرضُ المذكورة هي أَرضُ الشَّام. (مَرّتَيْنِ): وقد تَحقَّقَتا في التّاريخ القريب جداً من وقت القضاء، فوقع الفسادُ منهم في المرّة الأُولى بقتْلهم يحي بن زكريا، أَوْ أَشعيا، أَوْ إرميا، أَوْ أنّ الإفسادَ كان بمخالفتهم أحكامَ التَّوْراة.

أما المرّة الثّانية من الإفساد المقْضِي به على بني إسرائيل، فكبيرُ مفسِّريّ الإسلام:الطَّبَري، يؤكّد أنه لا اختلافَ بين أهل العلم أنّ المرّة الثانية من إفسادهم كانت قَتْلَهُمْ يحي بن زكريا، (وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كبيراً.) أي سوف يقع منكم تسلُّطٌ كبير وبغْيٌ شديدٌ.

(فَإِذَا جاءَ وَعْدُ أُولاهما)، وهو من بقيّة المقْضِي به في الكتاب:(إِذَا جَاءَ.)، جَاءَ فِعْل ماضٍ لفْظاً، مستقبَلٌ مَعْنى، لِدخول (إِذَا) عليه، وجِيءَ به في صيغة الماضي لإفادة التحقيق المستقبَلي المؤكَّد.(بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ **عِبَاداً** لَنَا.) وهُمُ البابليون بقيادة بختنصر،أَبْغَضِ خلْق الله إليه، سَبَى وقَتَل وخرَّب بيتَ المقدِس وسامهم سوءَ العذاب، أوْ أنهم جُنُودُ سَنْحَارِيب القائد الأَشُوري (القرن السابع ق.م).أوْ أنّ هؤلاءِ العباد هُمْ جُنود جالوت (القرن العاشر ق.م)، غير أنّ الرَّازي،في تفسيره الكبير، سئِم شدّة الخلاف في تعيين مَنْ هُمْ عبادُ الله هؤلاء فَنَصَّ أنه:« لا يتعلَّقُ كبيرُ غرَضٍ في معرفة أولائكَ الأقوام بأَعيانهم »[1].

(فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيار وكانَ وعداً مفعولاً.) أيْ كان أفراد الجيش الغازي يتخلّلون أَزِقّة المدينة باحثين عن كلّ شيء فيها، وكان هذا قضاءً إِلهيّاً واقعاً لا محالةَ.

(ثمّ رَدَدْنَا لكُمْ الكَرّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بأَمْوالٍ وَبنينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أكْثَرَ نَفِيراً.)، ثم أَدالهم اللهُ من عدوِّهم:جَالوتْ أوْ بختنصر، فقتلوه.وفي الطَّبَري:« عن أبي المعالي قال سمعتُ سعيد بن جبير يقول : بعث اللهُ عليهم في المرَّة الأُولى سَنْحَاريبْ، قال فردَّ الله لهم الكرَّة عليهم، ثم عَصَوْا ربهم وعادوا لما نهوا عنه، فبعث عليهم في المرّة الآخرة بختنصر، فقتل المقاتِلةَ و سبي الذُّرّيةَ و أخذ ما وجد من الأموال، و دخل جنودُهُ بيتَ المقدس كما قال الله تعالى: (لِيدخُلُوا المسجدَ كما دَخَلُوهُ أوَّلَ مرّة ولِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً.)[2].

أو أنّ بني إسرائيل لما قَضوا في الأَسْرِ البابلي مدَّةً طويلة من السّنين، هاجم الملِك الفارسيُّ "دَارْيُوس" أهلَ بابل وفتحها سنة 538 ق.م وأنقذ اليهودَ من الأَسْر فعادوا إلى أُورشليم وجدَّدوا دولتهم فأعاد لهم بذلك، النصْرَ على أعدائهم، وكَثُرُوا في العدد والأموال حتى فاقوا البابليين الذين هلك معظمهم في الحرب [3] .

ثم يعود الخطاب القرآنيُّ لتقرير القاعدة العامّة :(إِنْ أَحْسنتُمْ أَحْسنتُم لأَنفسكم وإِنْ أَسأتم فَلَهَا فإذا جاء وعْدُ الآخرة ليسوءوا وجوهَكم و ليدخلوا المسجِدَ كما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مرّةٍ ولِيتبِّروا ما عَلَوْا تَتْبيراً).

(مَا عَلَوْا) أَيْ يدمِّرون ما غلبوا عليه من بلادكم، ليس العُلُوّ هنا بمعناه الحقيقي، أي أنّ الجنود لا يرتفعون بأنفسهم فوق المباني التي يخرّبونها، ولكن العُلُوّ هنا مجاز، أي الغَلَبة والقهْر، أي يدمّرون كلَّ ما يستولون عليه.

وفي الطَّبَري روايةٌ كذلك تذكُر أنّ الواقعة الأخيرة كانت "لحردوس" وجنوده، وهي أعظم الوقعتين، فيهما كان خراب بيت المقدِس وقتْلُ اليهود.

أو أنهما لا بختَنْصَرْ، ولا حَرْدُوسْ، و لكن الآية، فيما يرى ابن عاشور،في كتابه: **التَّحْرِير والتَّنْوير**، ومحمّد رشيد رضا،في التفسير الشهير، المعروف **بالمنار**، تشير إلى تدمير طيطوس الرُّوماني الذي خرّب أُورشليم وأَحرق المسجد و أَسَر نحو مائة ألف، وقَتَل نحو ألْف شخصٍ من اليهود و ذلك سنة 40 للميلاد.

و لكن سيّد قطب من المحدَثين، لم يشأْ أنْ يتعب نفسه في تحديد شيء لم يُعيَّنْ في النصّ صراحةً ولا إشارةً، فيقول :«والقرآنُ لم ينصّ على جنسية هؤلاء الذين أرسلهم على بني إسرائيل. » [(4)]، (وإنْ عُدْتم عُدْنا.) في الطَّبَري عن ابن عباس: «فَعَادوا فسلَّط اللهُ عليهم المؤمنين.»، وعن قَتَادة: « وكان خِتامَ ذلك أنْ بعث اللهُ عليهم هذا الحيَّ من العرب فَهُم في عذابٍ منهم إلى يوم القيامة.».!!

(حَصِيراً)، فَعِيلٌ بمعنى فاعِلٌ،أوبمعنى مَفْعُول على تقدير متعلّق:محصور فيه، (اُسْكُنُوا الأَرضَ.) أرضَ مِصْر، أوْ أرض الشّام، (اللَّفِيفُ): ما اجتمع من الناس مِن قبائل شَتَّى.(وعْد الآخِرة)، يعني قيامَ الساعة، والمراد جئنا بكم من قبوركم مختلطين من كلّ موضع، أو أنّ وعْدَ الآخرة يعني الكرّةَ الآخرة، أو الساعة الآخرة. هذا ملخَّص رأْي التفسير التقليديّ، و رأْي مَنْ تابعة من المحدَثين و المعاصرين.

البَسْطُ:

والآن بماذا يمكن أنْ "**تَعْنِي**" لنا هذه الآياتُ في ضوء الواقع الحضاريّ الجديد المتّسم بالهيمنة اليهوديّة والعُلُوّ الإسرائيلي في الأرض المقدَّسة والعالم العربي؟.

إنها تعني لنا شيئاً آخر لم يخطر على بال السابقين،و مَنْ سار على نهجهم وكرَّر أقوالهم مِن المعاصرين.

(قَضَيْنَا في الكِتَاب)،قارِنْ بين العبارتَيْن في القرآن والكتاب المقدّس،تُدركْ التَّشَابه اللّفظي بينهما:«خَرَابُ أُرْشَلِيم..، أَنَا الرَّبُّ قَدْ قَضَيْتُ.» حزقيال/الأصحاح4. وانظُرْ كذلك:

«سَأُفْنِي جَمَاهيرَ مِصْرَ بِيَدِ نَبُوخَذْنَصّر مَلِكِ بَابل، أَعْتَى جُيُوشِ الأُمَم.» حزقيال/الأصحاح30. الكِتابُ، في **لسان العَرَب**، يعني: الفَرْضَ،أوِ الحُكْمَ، أو القَدَرَ.

القَضَاءُ في الكِتاب،لا يعني فقط إنزالَ الوحْي على موسى، أو أحد أنبياء بني إسرائيل، مكتوباً، يَقْرأ فيه بنو إسرائيل ما سيُحدثونه من الفساد والمعاصي في المستقبل.

فلا هو كتابُ التَّوراة، ولا أَشعيا، ولا سِفر دانيال، ولا حزقيال، و لاإرميا، وإنما هو كِتَابُ القَدَر،وسابقُ عِلْمِهِ تعالى، بالوقائع التي سيشهدها تاريخُ الشَّعب الإسرائيلي على الأرض، إنه، كما يقول ابنُ عباس "قَضَاءٌ قُضِيَ به عليهم" [(5)]، ولم ينزِل وحْياً مكتوباً في سِفر من أَسفار أَنبياء بني إسرائيل، ونعلم أنّ القضاء الإلهيّ على أُمّةٍ ما، بواقعتَيْنِ كبيرتَيْنِ تقعان في مستقبلها، لا يبدو مقبولاً أنْ ينتهي مبكّراً، وبشكل سريع ومتلاحق

بين حادثتين، يضمُّهما القرنُ السادس ق.م، بعد إفسادهم للمرّة الأُولى والثانية، وهي حادثةُ قتْلِ أَشعيا، ثم النبيّ يحي، عليهما السلام، وما أَعقب ذلك من تسليط الفاتح البابلي:بختنصر عليهم، وتدميره عاصمتهم:أُورشليم، بعد ذلك يخلو التاريخ الإسرائيلي حتى الآن، وعلى امتدادٍ زمنيٍّ مقداره 25 قرناً من أيّ حَدَث هامّ.

إنّ المقْضِي على بني إسرائيل، لا ينقطع سنة 587 ق.م، ولكن سوف يستمرّ معهم القضاءُ على طول التّاريخ الأَرضي، لهذا، فما نحياه الآنَ، هو جزءٌ مما قُضِيَ إليهم في الكِتَاب، والجزءُ الآخَر لم يتحقّق بعدُ.

(لَتُفْسِدُنَّ في الأَرضِ مَرَّتَيْنِ)، الإفسادُ، هنا، هو مما قَضَى اللهُ به على بني إسرائيل قَدَراً أنْ يحدثوه، وهو قَدَرٌ لم يتحقَّق في التاريخ إلاّ بعد التَّحَدُّث القرآنيّ به.

أيْ أنّ الإفساد المذكور، وقع مِن بني إسرائيل، **بَعْدَ نزول** القرآن، فاللام في (لَتُفْسِدُنَّ) المؤكِّدة للقَسَم المحذوف، أوْ لمضمون القَضَاء المقَدَّر عليهم، وهي لتخليص فعل(تُفْسِدُنَّ) إلى المستقبل، وهو مستقبلُ نزولِ السُّورة المكّية:(الإسْرَاء) ، فالنَّحْويون على أنَّ اللاَّم الداخلة على جواب القَسَم، مع النُّون المؤكِّدة للفعل، لا تكون إلاّ للمستقبل. لكن أيُّ مستقبَل؟ ! ، هل هو مستقبَل التَّوْراة، أَمْ مستقبَل القُرْآن.؟

الغريبُ أنّ المفسّرين، على طول التاريخ الإسلامي، من ابن عباس إلى أيامنا المعاصرة، أَجمعوا على أنّ مَرّتيّ الإفساد الإسرائيلي في الأَرض، وقعتا قبل نزول القرآن، مخالفين في ذلك، الدَّلالةَ اللُّغوية الصريحة للنصّ القرآني، وواقعين تحت الاعتقاد الخاطئ بأنّ "الكِتَاب" المذكور في الآية هو التَّوراة، فمضوا يفسّرون الآيةَ وكأنها عبارةٌ مقتَبَسةٌ من التَّوراة لا جملةٌ قرآنية؛ لذا لن يكون الزَّمَن المستقبلي، المستفاد من نون التَّوكيد:

(تُفْسِدُنَّ) في الآية، مستقبَلاً قرآنياً، وإنما هو مستقبل تَوْراتي، فالآية إذَنْ، قد قصَّت علينا، حين نزولها، ما كان قد وقع من فساد بني إسْرائيل للمرّة الأُولى والثَّانية، في الزمن الماضي، وليست مُنْبِئَةً بما سيقع من فسادٍ يهوديّ في "مستقبَل" القرآن، وهذا على الرّغم من الدّلالة اللُّغوية الواضحة التي تقضي بنقيض ذلك تماماً.

(في الأَرضِ)، الأَرضُ، هنا، هي المجال الجغرافيّ الذي تتمركز فيه النقطتان المحوريتان المقدَّستان:(المسْجِدُ الحرام + المسْجِدُ الأَقْصى)، أيْ جزيرة العرب مع شمالها،الشَّام، إلى ضفاف المتوسّط، مَبْعَثِ الأَنبياء ومَهْبَطِ الرِّسالات.

لقد افتتحت السُّورة بذكر المسجدَيْنِ وربطتهما بحدَثٍ واحد: (الإسْراءِ)، من أجل تأْكيد الارتباط بين النقطتين،الحجاز وفلسطين، والانتماء الإسلاميّ الواحد للمؤسَّستَيْنِ الدينيّتَيْنِ،الحَرَمَيْنِ، بشكل قاطع، و" ألاّ يبقى دينانِ - بقاءَ الهيْمنة لا بقاءَ الوجود - في جزيرة العرب "، كما أَوْصى الرسول في آخر أيامه.

نقول هذا في أيامٍ تُعلَن فيها مدينة القدس عاصمةً أَبَديّة وموحَّدة لدولة إسرائيل،

لنؤكّد مناقضةَ هذا الإعلان لمنطق التاريخ ودلالات القرآن، أيْ هشاشته وظَرْفيّته، وعدم تحقُّقه إلاّ مؤقّتاً.

(لَتُفْسِدُنَّ في الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبيراً.). وقع الإفساد الإسرائيلي الأوّل بعد سنين فقط من نزول السُّورة المكّية، وكما أنبأتْ به الآيةُ تماماً، فبادر اليهود إلى تكذيب النبيّ الأُمّي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التّوراة، وحاولوا وأْدَ الرسالة في مهدها، بل ذهبوا إلى الحُكم- لمّا حُكِّموا من قِبَل مُشركيّ مكّة - بأفضليّة الوثنيّة والشِّرك على التوحيد الذي جاء به محمّد صلّى اللهُ عليه و سلم[6]، مع ما كان من نقْض المعاهدات مع المسلمين وإقامة التّحالف مع المشركين، للحيلولة دون انتشار الدِّين الجديد.

إنّ مؤامرات يهود الجزيرة التي حيكت للقضاء على الإسلام في إشعاعه الأوّل تُعَدّ من أشنع أنواع الفساد التي أحدثوها بعد موسى، إذْ كَذَّبوا بخاتم النبيِّين وأَلَّبوا عليه أهْل الشِّرك، وخطّطوا لقتْله لولا أنْ نجّاهُ اللهُ، كلُّ ذلك مع علمهم أنه نبيٌّ حقاً، و قد أخبرنا القرآنُ علمَهم بنبوَّته فقال:(الَّذين آتيناهُمُ الكِتابَ يَعرِفونه كما يَعرِفون أبناءَهُمْ وإنّ فريقاً منهم لَيَكْتُمُونَ الحقَّ وَهُمْ يعلمونَ.) البَقَرة/146.

وكيف اجتمع رأْيُ المفسّرين على أنّ المرّة الأُولى من إفسادهم كانت قتْلَهم أَشَعْيَا (القرن الثامن ق.م) أو زكريّا(القرن السابع ق.م)، مع أنهم عُرفوا بكثرة قتْلِهم الأنبياءَ: (قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبياءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.)البقرة/91 "26"، وقوله تعالى:(أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رسولٌ بما لا تهوَى أَنْفُسُكُمْ اِستكبرتمْ فَفَرِيقاً كذَّبْتُمْ وفريقاً تَقْتُلُونَ.) البقرة/87.

إذَنْ لا معنى لتخصيص مقتل نبيٍّ معيَّن على أنه إفسادُ المرّة الأُولى إذا مسَّ هذا القتْلُ الكثيرَ من أنبيائهم، كما أشار القرآن.

إنّ موقفهم العدائي الشديد،من نبيّ الإسلام، لَتضؤُلُ معه كلُّ جرائمهم السابقة، لكلّ هذا، من الطبيعي أنْ يعدَّ هذا الموقف، وفقاً لحقائق التاريخ وللظّاهر اللُّغوي لنصّ الآية، هو أُولى المرّتَيْنِ في إفسادهم، إفساداً لم يسبق لهم مثله في تاريخهم الطويل الذي يمتدُّ إلى خروجهم من مصر، في القرن 13 قبل الميلاد.

(وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبيراً.) هل الإفساد في المرّتَيْنِ كان مصحوباً(بالعُلوِّ الكبير)؟، أم أنّ الإفساد الإسرائيلي في المرّة الأُولى على عهد الرسول(ص)،لم يكُن مقروناً بالعُلُوّ الكبير، ولكن هذا العُلُوّ إنما صاحب فسادَ المرّة الآخرة، التي نعاني نحن الآنَ ويلاتها في القرن العشرين للميلاد؟.

يبدو أنّ معنى الاستفهام الثاني هو الأَقرب إلى واقع التاريخ ودلالة لفظ الآية معاً.

سَكَتَ التفسيرُ الإسلاميُّ عن تفصيل هذه القضيّة، وكأنّ عبارة:(عُلُوّاً كَبِيراً.) مجرّد حِلْيةٍ لفظية، التزاماً بفواصل آيات السُّورة المنتهية بـ (فَعِيلاً)، كأنّ هذه العبارة لا تشير إلى واقع تاريخي محقّق لجزئيّاتِ التعبير ودقائقه في الآية، فاطمأنّ إلى القول بمصاحبة (العُلُوّ) للمرّتَيْنِ من الفساد، وسبب ذلك هو أنّ التفسير الإسلامي لم يتحدّث عن "فَسَادٍ" يهوديّ، بعد العصْر القُرآني، وبعد نزول سُورة الإسراء، ولو فعل

لاصطدم بالتّصحيح التّاريخي لآرائه، أمّا وهو يبحث عن المضمون التاريخي لهذه الآيات، في القرن السابع والسادس قبل الميلاد، فمن الصَّعب على المفسِّرين اكتشاف تضارُبٍ بين وقائع التّاريخ وظاهرِ النصّ؛ لأنّ الوقائع والأحداث، إذا بَعُدتْ عنّا، سهُل تأْويلُها واختلاقُها لتتّفق مع النصّ رغماً عنه.

والحقيقة أَنّنا لَنشعر بوضوح، بتصرُّف المفسِّرين في أَحداث التّاريخ الماضي، وذلك حين نقف أمامَ "الأَقاويل" المضطربة في تحديد المرّة الأُولى والمرّة الثانية، في تحديد مَنْ هُمْ المسلَّطون على بني إسرائيل في المرَّتَيْنِ، وبعدَها.

لا يمكن أنْ نستنبط من النصّ أنّ العُلُوّ الكبير قد صاحب المرَّتَيْنِ من الإفساد. إذَنْ فقد خَلَتِ المرَّةُ الأُولى للإفساد، في صدر الإسلام، من العُلُوّ اليهوديّ، وهذا ما يحمله ظاهرُ النصّ، ولكن هل يؤكِّدُهُ التَّاريخُ الذي تقصُّه علينا لنا السيرةُ بأحداثها المعروفة ؟.

قبل كلّ هذا ينبغي تحديد معنى " العُلُوّ "، في المفهوم القرآني.

قال تعالى:(تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نجعَلُهَا للّذينَ لا يُريدونَ عُلُوّاً في الأَرضِ ولا فساداً وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتّقِينَ.) القَصَصُ/83. وهذا بعد سياق الكلام عن الطُّغْيان المالي لقارون،الذي بَغَى على قوم موسَى مع كوْنِهِ منهم، فأَهْلَكَهُ اللهُ تعالى،فهو هنا، نموذَج للعُلُوّ والفساد، الناتج عن سُلْطة المال، الذي يُعَدُّ من أَكبر أَدَوَات القهْر والإِذْلال واستعباد الناس والاستخفاف بهم.

وقد وَرَدَ: (العُلُوُّ) بمشتقّاته الأُخرى، إذا اتّصف به الإنسان، بمعنى:الطُّغْيان السِّياسي، المصحوب بالتسلُّط والقهْرِ، كما في قوله تعالى:(إنّ فِرْعَونَ عَلَا في الأَرْضِ و جَعَل أَهْلَها شِيَعاً يستضعف طائفةً منهم..) القَصَصُ/4، وله المعنى نفسه في قوله تعالى:(إنّ فِرْعَونَ لَعَالٍ في الأَرْضِ وإنَّهُ لمن المسرِفِين.) يونس/83، وقال عن قوم فرعون، بقريبٍ من ذلك المعنى، في تكذيبهم بآياتِ موسى، مع اعترافهم الضِّمْني بحقيقة ما تدلُّ عليه الآياتُ :(وَجَحَدُوا بها واستيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً.) النَّمْل/14. نعمْ ورد لفْظُ :(تَعَالى، والعُلُوّ) من الله يصفُ بهما ذاته، سُبحانَه،مضمَّناً دائماً معنى:التَّنَزُّه الإلهي عن كلّ أشكال الاعتقادات و التَّصَوُّرات البشريّة التي لا تليق بذاته سبحانه، :(سُبْحَانَهُ وَتَعَالى عَمّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبيراً.) الإِسْراء/43، فيما سوى ذلك، فالعُلُوّ، في المفهوم القرآني، يُطلق على ما يمارَس ضدّ أَقليّة عِرقية أو إِيديولوجية معارِضة، مِن قَهْر، حينَ يسعى قائدُها،أو مَنْ يمثّلها، إلى تغيير وضعها الاجتماعي والفكري المفروض، فيُقابَل بالمتابعة والاضطهاد، إذَنْ " العُلُوّ " في الممارسة الإنسانية بعيدٌ عن وصف ذات الله وتنزيهاتها، إنّه القهْر السياسي والاستغلال المالي، ونعلم جيّداً العلاقة الوطيدة بين أرباب المال و أصحاب السُّلطة في كلّ المجتمعات الإنسانية، واجتماعهما واتحادهما،على مناهضة كلّ "وعْيٍ إصلاحي"، يُشكّك في شرعية آليات النّظام الاجتماعي السّائد، أو يسعى إلى تغييرها، وبذلك يمكننا استخلاص

تعريفٍ لِلَفْظِ " العُلُوّ " في القرآن: "انتهاك كلّ معيار خُلُقِي أوْ ديني أو إنساني، لتحقيقِ أو للإبقاءِ على مصالح فئوية، أو خدمة هدفٍ قوميٍّ عنصريٍّ " .

إنّ العُلُوّ، يتّسم بالطابع السِّياسي المنظَّم، في التسلُّط والقَهْر ومحارَبَة الوعْي الإصلاحي المضادّ، وذلك باستخدام القوى المادّية المختلفة.

لهذا نخرجُ الأعمالَ الجزئية المنعزلة،والانتهاكات القانونيّة والخُلُقيّة لأفرادٍ أو جماعاتٍ متطرِّفة، مختلفةِ النَّوازع والأهداف في مجتمعٍ مَا، من تعريف: العُلُوّ، في المفهوم القرآني.

إذن، لم يقع العُلُوُّ، بهذا المعنى، من يهود يَثْربَ، وما حولها، في جاهليةٍ ولا إسلام؛ وذلك لأنهم كانوا يشكِّلون في التَّركيبة البشرية لجزيرة العرب أقليّةً عِرقية وثقافية منغلقة على ذاتها، في اقتناع تامٍّ بما عندها، تحتكر المعرفةَ بالدِّين والكِتَاب(أَهْل الكِتَابِ)،و أخبارَ الأَوَّلين، ولكنّهم كانوا يعيشون وسط نخوةٍ عربية قبائلية ضاربةٍ، تحيط بهم من كلِّ جانب، وكانوا أضعف بكثير من أنْ يكون لهم استعلاءٌ في الأرض، وإنما وقَعَ منهم "الإفسادُ" في صورة التَّكذيب بالنبيِّ الجديد، المبشَّر به في كُتُبهم، لا لشيء إلاّ لأنّه لم يكن منهم، فيحقِّقَ لهم مطالبهم القوميّة التي طالما انتظروا لها الوقتَ المناسب .

إنّ ذلك التّكْذِيب قد استحقُّوا بسببه: لعْنَةَ الله وغضَبَه وعذابَهُ المهين:(فَلَمّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ.)البَقَرَة/89، وقال تعالى:(بِئْسَمَا اشْتَرَوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أنْ يَكْفُرُوا بما أَنْزَلَ اللهُ بَغْياً أنْ يُنَزّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَبَاءُوا بِغَضَبٍ على غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ.) البَقَرَةُ/90.

من الواضح أنّ سلوكاً اجتماعياً لجماعةٍ دينيّة أوْجَبَ لعنةَ اللهِ وغَضَبَهُ المضاعَفَ ُوعذابَه معاً، من الطَّبيعي جدّاً أنْ يُعَدَّ أكْبرَ أنواع الفساد في تاريخ تلك الجماعة. إنَّ هذا التَّكْذِيب هو الإفساد اليهوديُّ الأوّل (إفْسَادُ المرَّةِ الأُولى)، الذي لم يكن مصحوباً "بالعُلُوّ"، يؤكِّد ذلكَ الآيةُ القرآنيّةُ الصّريحة الدَّلالة:(وَلمّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ، مُصَدِّقٌ لما مَعَهُمْ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الّذِينَ كَفَرُوا فَلَمّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ، أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ.) البَقَرَةُ/89. والاستِفْتَاحُ : طَلَبُ الفَتْح، وترجِّي ظهور نبيٍّ منهم يقاتلون معه سواهم من الأُمِّيّين،« وعن جماعة من الأنصار أنهم أقسموا أنّ الآية نزلت فيما كان بينهم وبين اليهود، الذين كانوا يُشيعون في أوساط العرب أنّه سيُبعَثُ نبيٌّ في آخِرِ الزَّمَان،« نُقَتِّلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عادٍ و إِرَم.» .

قالوا: وكُنّا قد عَلَوْنَاهُم قهْراً، دهْراً في الجاهليّة، ونحن أَهلُ شِرْك وهُمْ أَهْلُ كِتَاب، فلما بعث اللهُ رسوله من قريش واتَّبَعْنَاه كَفَرُوا بـه.»[7].

إنّ اليهود يعيشون فترةَ انتظار مخلِّصٍ، يخرجهم من حال الاستضعاف، إلى الظهور والغَلَبة واستعادة المجْد الغابر:(مملكة سُلَيْمَان)، ثمّ السَّيْطرة على ما بين النّيل والفرات.

لقد كانوا، وما يزالون حتىّ الآن، يشكّلون في كلِّ دُول العالم، جماعةً ذات نظام إيديولوجيّ طوباويّ مُغلَق ينطوي على كراهيّة شديدة لغالبيّة المجتمع الذي يعيشون فيه، فينهجون سياسةً تخريبيّة، يبرِّرها الواجبُ الدِّيني في تحقيق الآمال القوميّة الموعودين بها، ويُخضِعون، باستمرار، ناشئَتَهُم « للتَّدْرِيب الإِيديولوجيّ على العَدَاءِ.»[8].

ينبغي أنْ نلحَظ جيِّداً أنَّ الهدف المثالي البعيد عن الواقعيّة، يستدعي دائماً،قناعةً إيديولوجيّةً عمياءَ من أصحابه،ثمّ ممارسةً ميدانيّة متطرِّفة من أجل تحقيقه.

إذَنْ شهِدَ العهدُ المحمّدي "إفسادَ " المرّة الأُولى، وعلى يده، عليه الصَّلاة و السلام، و بِيدِ أصحابه عليهم الرِّضوان،لا على يد نبوخدناصر حقَّقَ اللهُ تَعَالى (وَعْدَ أُوْلاهُمَا)، عقوبةً على إفسادهم، هذا ما شهِدتْ به وقائعُ التَّاريخ ودلّتْ عليه ظواهرُ النُّصوص، وهما الأَمرانِ اللَّذانِ ينبغي أَنْ يتلاءَمَا، ويشهد كلٌّ منها للآخر، كشرْطٍ لكلِّ تفسيرٍ صحيحٍ للنصّ القُرْآني في كلّ زمن.

أما نحن الآن، في بداية القرن 15 للهجرة، فإِنَّنَا نعيش" إِفْسادَ المرَّةِ الثَّانيّة " لليهود، ولكنّه، هذه المرّة، إِفْسَادٌ مصحوبٌ بالعُلُوِّ، العُلُوِّ الإِسرائيلي الكبير.

وما نزال، نحنُ المسلمين، حتىّ هذه اللحظة، في انتظار أَنْ يحقِّقَ اللهُ: (وَعْدَ الآخِرَةِ)، العِقَابَ الإِلهيّ لإِفسادِ المرّة الثَّانيّة التي نعيشها، هذا الوعْدُ ما يزال في أَحشاء الغيب، لكنَّهُ أَكيدُ الوقوع.

(وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً.)،بين إِفساد المرّة الأُولى وإِفسادِ المرّة الثَّانية، الذي اِقترن به العُلُوّ الكبير، فُسحةٌ زمانيةٌ مدَّتها 14 قرْناً، على الرّغم من تجاوُرِ الكلمتَيْنِ في العبارة القُرْآنية، تلك هي معاني القرآن ودلالاته الكونيّة، التي لا تستنفدها فترةٌ زمانيّةٌ واحدةٌ أَوْ واقعةٌ تاريخيّةٌ منفردة،كما اعتقد التَّفْسيرُ القديم، بتوجيه من الوعْيِ الإِسْرائِيلِيَّاتي .

إنّ من المظاهر الصارخة لهذا العُلُوّ، أَنْ تمنح الأُمَمُ المتّحدة، بقرار التقسيم، شُدَّادَ الآفاق، من الجَمَاعات اليهوديّة عام 1947 أَرْضاً، هي لِشعبٍ يعيش فوقَهَا منذُ 4 آلاف عام، لِيجد نفسَه، بعد هذه المدَّة، لاجئاً فوقَ أَرْضٍ هِيَ أَرْضُهُ، و يحرقُ المسْجِدُ الأَقْصَى، في أوت 1967، وتُعلَن القُدْسُ ذاتها، عاصمةً أَبَدِيَّةً لإِسرائيل، على مَرْأَى ومَسْمَعٍ مِن العالم كُلِّه.

من التَّجلِيَّات الواقعيّة للعُلُوّ، المذكور في الآية، أَنَّ إِسرائيل، هي الكِيَان السِّيَاسي الوحيد الذي ينتهك في صَلَفٍ كلَّ المبادئ و الأَعراف الدّولية، ويُعطي لنفسه الحقَّ في مراقبة كلّ المنطقة العربية والإِسلامية، لمنْعِ أَيّ تسلُّح جادٍّ، أَوْ تكوُّن قوّةٍ عسكرية ضاربة، كما يحتفظ لنفسه بحقِّ تدميرها، إذا ما اكتشفها، وهو الكِيَان الوحيد، الذي لا يشمله الحظْرُ النَّوَوِي، كما لا يُلزَم بالخضوع لمراقبة الوِكالة الدّوليّة للطَّاقة الذَّرية، وهو يقِف بشكل مباشر، خلْفَ كلِّ أعمال التَّصْفية للوجود الإِسْلامِي في العالم كلِّه، وفي سنة 1993 تُعلِنُ المحكمة الإِسرائيليّة العُلْيا ساحةَ القُدْس الشَّرِيف أَرْضاً

إِسْرائيليّةً، وسط صمْتٍ دولي وإسلامي غريب، مع الإشارة إلى أنّ العواصم العربية كلّها تقع تحت مدى الصواريخ النّوويّة الإسرائيليّة، إنّه "العُلُوُّ الكَبِيرُ " حقّاً، لم يشهد التاريخُ الإسرائيلي، من عهْدِ الخروج من مصر،حوالي سنة 1240 قبل الميلاد،حتىّ هذا القرن، عُلُوّاً و استكباراً بهذا الحجم، ولا ما يُقاربه، وبالتّالي لا يوجد حدَثٌ تاريخيٌّ مَضَى، يمكن أَنْ يُعَدَّ تفسيراً للآية، إلاّ النِّصْفَ الأخير من القرن العشرين للميلاد، الذي ما تزال ظروفُهُ وملابساتُهُ تَعْتَمِلُ وتتطوَّر، في طريق استكمال وتحقيق مَعْنَى النصّ القرآني على أَرْض الواقع التاريخي المشهود.

إنّ اليهود يحقّقون بأيديهم ما قرَّرتْهُ سورةُ الإسراء فيهم، فتاريخُ الدّولة اليهودية حاضرُها ومستقبَلُها، السياسي والاقتصادي، ونفوذها الإعلامي وقوتها العسكرية، كلُّها عواملُ وأسبابٌ، تدفع بالمجتمع الإسرائيلي نحو تحقيق المعنى القُرْآني:« للعُلُوّ الكَبِير» [9] في هذه الفترة، أو الحِقْبة التي نعيشها اليوم؛ لهذا السبب بالذات، كان النصّ القرآنيُّ غامضاً أمامَ المفسِّر القديم لكوْنِهِ يقف أمامَ نصٍّ :"مُسْتَقْبَلِ المعْنَى"، كما أَنّ المجال التّاريخي السابق عليه، لا يقدِّم له عوْناً على تفسيرها(الآية) واستنزالها على واقعةٍ معيَّنة منه، تتطابق حقّاً مع مَعْنَى "العُلُوِّ الكَبِيرِ"، فَمَضَى يَعُدُّها مجرَّد وصْفٍ مبالَغٍ فيه للإفساد الإسرائيلي في المرَّة الأولى والثّانية.

إنّ العبارة القرآنية هذه، ليست سَجْعاً ولا زينة لفظية، إنها إشارة إلى حَدَثٍ، إلى حقيقةٍ خارجيّة ذاتِ وجودٍ واقعيٍّ، شكَّلَ تحقُّقُها، الذي بدأ منذ نصف قرن (1948)، إحدى أهمّ فترات التّاريخ العالمي.

لقد كان معنى العبارة في السابق جزءاً من الغيب، متعالياً على التّاريخ، ولم ينزل إلى فضائه إلاّ بعد الحرب العالميّة الثانية، حينَ بدأ العُلُوُّ اليهوديُّ في إنجاز الحتميّة القُرْآنيّة للمرّة الثّانية في تاريخه لما بعد الإسلام.

لقد اتّضحتِ الأبعادُ الكَوْنيّة لهذه العبارة الوجيزة، بعد انهيار الوعْي الشُّيوعي في مواجهة الغرب اللِّيبيرالي، ليتّحدا(الشَّرْقُ والغَرْبُ)،في النِّهاية، ضدّ الإسلام المتنامي باعتباره خطراً مشتركاً بينهما، فاستبان أنّ اليهودية، بما تملكه من تراث رمزي تاريخي وديني طويل: (الكِتَاب المقدَّس وتأْويلاته)، ستشكِّل رأسَ الحربة للمسيحية الغربية، في الصِّدام المحتوم مع الإسلام، وهو صدامٌ سيتّخذ من أرضِ الشَّام عموماً والقدسِ خصوصاً مسرحاً لأحداثه، وسيُجلَى اليهودُ من أرض المسجد الأقصى، تماماً، كما أُجْلُوا من أرضِ المسجد الحرام من قبْلُ: (غزْوَةُ خيْبَر)، وهما المسجدان اللّذَانِ ربطت بينهما سورةُ الإسراء في مُستَهَلّها، لتؤكّد لنا انتماءَهما الإسلامي داخل سياق الحديث عن الاستعلاء اليهوديّ بالذّات.

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُوْلاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً.).

تردّدٌ واضطرابٌ تفسيريٌّ كبيرٌ، في تحديد جنسيّة الذين بُعِثُوا عليهم أَوّلَ مرَّة، بين

أَنْ يكونوا جيشَ جَالُوتْ:(القَرْنُ العاشر ق.م)، أَوْ سَنْحَارِيبْ:(القَرْنُ السَّابع ق.م)، أو بخَتْنَصَرْ:(القَرْنُ السادس ق.م)، أوْ حتىّ مَلِك النَّبَط:(القَرْنُ الرَّابع ق.م)، بل يذكر الطَّبَريُّ من الأقوال التفسيرية ما يرجّح أنْ يكون سَابُور ذو الأكتاف، هو صاحبَ العقوبة الأولى، مع أنّه من الملوك السَّاسانيين، الذين ظهروا في القرن الثالث بعد المسيح.

هذه الأقوال التفسيريّة يوردها الطَّبَريُّ- على تَضَارُبها- منسوبةً إلى ابن عبـاس، وسعيد بن جُبَير، ومجاهِد بن جَبْر، وسعيد بن المسيَّب، وغيرهم، من رُؤَساء التَّفْسير التَّابعي، غيرَ ملتفتٍ تماماً إلى الإحالات التّاريخية بينَ الوقائع والنصّ.

إنَّ الطَّبَريّ لم ينقِّب عن حقيقة هذا النصّ في الواقع التاريخي السابق عليه، ولا في ظاهر الدَّلالة اللُّغوية له،وإنما بحث عنها في ذلك الرصيد الضَّخم من الأقوال والتفسيرات ذات الطَّابَع القَصَصَي الإسرائيلي، التي تشكّلت حول نصوص القرآن، مع نهاية المئة الأُولى وبداية الثّانية، فنَقَلها كلَّها على ما بينهما من تضارُبٍ متعِب لكلّ باحث عن الحقيقة التاريخية للآية، نَقَلها الطَّبَريّ عَسَاهُ أنْ يصيب بأحد هذه الأقوال مُراد الآية،ولم يكن يتصوَّر أنَّ مُراد الآية، أو التفسير الصحيح لها، يتخطَّى تلك الأقوالَ جميعاً.

الواقع أنّ الرأْي الذي استقرّ عليه التفسير الإسلامي، من بداية الطَّبَري إلى محمد علي الصابوني، في أيامنا هذه، أنّ عِبَادَ اللهِ الذين أُرْسِلوا على بني إسرائيل عقاباً لهم على إفسادهم في الأرض هو« بخَتْنَصَرْ البابلي وجنودُهُ سنة 586 قَبْلَ الميلاد.».

إنّ الغَزْو البابلي للشّام بقيادة بخَتْنَصر أو:nabuchdnezzar كما في المصادر الأَجنبية، وتدميره لأُورشليم، حقيقة تاريخيّة[10]، وقد ملأ ذكرُه أسفارَ الأَنبياء: دانيال وحزقيال وإرميا، وفي التَّوراة سفر إِرميا الأَصحاح:21،25،29،39، كلام عن سقوط المدينة، وأحداث القتل و التَّدمير:« و إلى نبوخدناصَّر، عبدي، ملك بابل، آتي بهم على هذه الأرض، فأُحرقها وعلى كلِّ سكانها.»، « أَمّا بيت الملك وبيوت الشعب فأَحرقها الكلدانيون بالنار، ونقضوا أَسوار أُورشليم.» إرميا، الأَصحاح 25 ، 39.

وقد اشتهر في التفسير الإسلامي، المؤسَّس على روايات الطَّبَري، فيما يسنده عن الأَعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، ومرّة عن سعيد بن المسبب، أنَّ بختنصر، وجد دما يغلي بأرض الشّام، لم يسكن إلاّ بعد أنْ ذبح سبعين ألف من اليهود عليه، وذلك هو دَمُ يحيى بن زكريا النبيّ الذي قتله اليهود، ذكر الطَّبَري هذه الرواية من غير أنْ يتفطن إلى الإحالة التاريخية الكبرى فيها، وذلك أنّ يحيى بن زكريا جاء بعد الغزو البابلي لأُورشليم بـِ 6 قرون تقريباً، وهو المعروف في المصادر المسيحية بيوحنّا المعمدان، ابن زكريا الثاني، كاهن هيكل سليمان وكافل مريم أُمّ المسيح عليهما السلام، الذي كان كلّما دخل عليها المحراب، أَي الهيكل(وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً.) آلُ عِمْران/37.

وهو ليس زكريا النبيّ، الذي عاصر نبوبختنصر في القرن السادس ق.م، عندما تذكر التَّوراة أنّ أحد قواد نبوبختنصر يُدعَى:"بنوزرادان" رئيس الشُّرَط سبى بقيّة الشَّعْب إلى بابِل." سِفْر إرميا، الأصحاح 39. يذكر الطَّبَريُّ هذا الاسم بالذات مع تغيير طفيف و هو تقديم الراء على الزاي فقط و يصفه بـ"صاحب القتل."، وهو كما نرى قريب من التّسْمية التَّوْراتية. غير أنّ المفارقة هي أنّ الطَّبَريّ جعل صاحب هذا الاسم، أَحَدَ رؤساء الجند "للفاتح حَرْدُوس"[11] البابلي المرسَل على بني إسرائيل عقاباً لهم وذلك: «حين رفع اللهُ عيسى مِن بين أَظْهُرِهِمْ وقتلوا يحيى بن زكريا.» [12] أيْ أنّ رئيس الشرط هذا كان في عهد المسيح ولم يكن أحدَ قوّاد نبوبختنصر قبل 6 قرون.

إنَّ هذا الخلط يوحي باختلاف المصدر التَّوْراتي الذي استقى منه الطَّبَريُّ المادّة التفسيرية، عن التَّوراة التي بأيدينا الآن، وهذا ما يؤكّد الاعتماد شبه الكلّي من قِبَل التفسير التقليدي على المادّة الإسرائيلية في تفسير هذه الآيات، ويرينا بوضوح، مسؤولية هذه المادّة الأخبارية، عن إحداث الأثر السيئ في نفوس الأجيال الإسلاميّة عبر العصور؛ لأنّ هذه المادّة توجِّه فهْمَنا للنصّ القرآني وطريقة وعْينا به، وجهةً قَصَصِيّة ماضوية:«أعاجيب الماضي وخوارقه.» مضرّةً بأسس التفكير العلمي وخاليةً من أيّة فائدة عملية في الإعداد النفسي و التكوين الإيديولوجي للأجيال ضدّ الخطر اليهودي في هذا العصر.

إنَّ أَسْفار حِزقيال ودانيال وإرميا، التي روَتْ ملابسات الغزو البابلي لأُورشليم، نُظر إليها في التفسير على أنها : المضمون التفصيلي لآيات الإسراء، وهذا على الرغم من كلّ الموانع اللّفظية في النصّ ضدّ هذا الفهم وهذا التفسير، وعلى الرغم من كلّ المخالفات مع الواقع التاريخي، وحتىّ على فرْضِ أنّ الكتاب المقْضِي فيه بالإفساد على بني إسرائيل هو الكتاب المقدَّس، فإنه قد سبق وأُخِذ الميثاق من أصحابه، شعوباً وأنبياء، و بوجوب الإيمان بالنَّبيّ الأُمّي القادم ونصرته، مع ما كان منهم من إقرار بذلك إقرارَ حالٍ أَوْ مقال، وانعقاد العهد بذلك وتمامه، ثمّ الاحتفاظ بهذه الشهادة بينهم وبين الله:(وإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النّبيّينَ لَمَا آتَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، ثمّ جَاءَكُمْ رُسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ،قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُم عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي، قَالُوا أَقْرَرْنَا، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ.) آلُ عِمْرانَ/81:(مِيثَاقُ النّبيّينَ.): (مِيثَاقُ الّذِينَ أُوتُوا الكِتَابِ)، و(لَمَا)،هنا بمعْنَى (مَهْمَا)، أيْ مهما كان لديكم من كتابٍ وحكمة، فعليكم اِتِّباعُ آخِرِ الأنبياء الذي سوف يُبْعث.

لكن الذي وقع من أهل الكتاب هو عكس ذلك تماماً، أيْ أنهم نقضوا عهدهم مع الله ولم يؤمنوا بالرسول ولم ينصروه، وأنكروا نبوَّته و نبذوا عهدهم مع الله في ذلك: محقّقين بهذا الموقف ذروة الإفساد الإنساني على الأرض، فأتى الحكم الإلهي على هذا الموقف: (أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالملائِكةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ.) آلُ عِمْران/87.

والحقيقة أنّ إعلان هذا الجزاء الإلهي الشديد هو الذي حدّد لنا حجم الفساد

المقترَف، وحين كان اتخاذ هذا الموقف الإجرامي منهم ضدّ بني هذه الأُمّة، وفي مجالها التاريخي، فمن الطبيعي جدّاً أَلاّ تكون العقوبة عليه إلاّ من أبناء هذه الأُمّة بالذات، وضمن فضائها الزَّمَني كذلك.

مَعَاني الأَلفاظ، بين الكِتَابِ والتَّاريخ:

نعلم أنّ (قَضَى إلى.) فِعْلٌ متعدٍّ بحرف إلى. ويعني: أَبْلَغ أَوْ أَنْفَذَ، في العربية، فقَضَى إِلَيْهِمْ الإفسادَ في الكتاب، أيْ أَنْفَذَهُ عَلَيْهِمْ وأَجْرَاهُ في القَدَر،أَوالقُرآن، والمتصفِّح للكتاب المقدَّس، لا يجد فيه إبلاغاً مستقبَليّاً للإفساد مرَّتَيْنِ، ثمّ إنزال العقوبة عليهم، بعد ذلك بغزْوٍ خارجيٍّ في كلِّ مرّة، وإنما كلُّ ما في الأمر هو عثورنا على ذكر للغزو الأَشوريّ بقيادة سنحاريب في القرن السابع ق.م، والغزْوُ البابلي بقيادة بختنصر في القرن السادس ق.م. وذلك في سِفْر:إِشَعْيَاIsaiah ،وإِرْمِيَا Jeremiah، على التَّوالي، وكلاهما عاصر أحداث الغزْو التي وقعت في أيامه، فوصفها بشيء من التفصيل،ولا يمكن أنْ يُعَدّ مثل هذا الوصف (إعلاماً) في الكتاب، بأمرٍ ذي بالٍ سوف يقع، وإنما هو من قبيل الوصف الحيّ للحدث،(إشعيا مع سنْحَاريب)،(إرميا مع نَبُوخَذْنَصّر).

ثم إنه من المعلوم أنّ سِفْريّ: إشعيا وإرمْيَا،اللّذَينِ ورد ذكرُ الغزوتين فيهما لا يمكن أنْ يُطلق عليهما لفظ (الكِتَاب)، بل هي نُبُوءات بالويل والثُّبُور لأهل أُورشليم، لا تُعدّ من الكتاب المقدَّس إلاّ بتجوُّزٍ كبير، إذ هما سِفْرانِ إثنانِ من 39 سِفْراً، خمسةُ أَسفار منها:التكوين،الخروج،واللاّويِّن، والعدد، والاشتراع، هي صلب الكتاب المقدّس، ما سوى ذلك فهي ترانيم ونُبُوءات: Prophecies لأَنبياءَ جاءوا بعد موسى بقرون عديدة.

(فَإِذَا جَاءَ.) الفاءُ هنا تفيد مجيءَ العقوبة بعد فساد المرّة الأُولى مباشرة، أيْ : "إِفسادٌ فَعُقُوبَةٌ" من غير فاصل زمني طويل، وهذا ما يؤيّده الواقعُ التاريخي في زمن البعثة:" تكذيب يهوديٌّ بالرسالة المحمّدية فتخريبٌ لديارهم و إِجلاؤُهم إلى الشام" .

(إِذَا.) الظَّرفية الشرطية، تتعلّق بما هو محقَّق الوقوع من الأحداث في المستقبل، نحو: إِذَا أَقْبَلَ الشِّتَاءُ أَقَمْتُ عِنْدَكُمْ، وأنت تنوي الإِقَامة لا محالةَ، لأَنّ قدوم الشِّتاء لا مردّ له، والفعل الذي بعدها، وإِنْ كان بصيغة الماضي:(جَاءَ)، فهو معنيٌّ به الاستقبالُ، نحو قوله تعالى: (إذا جَاءَ نَصْرُ اللهِ)،أيْ حينَ يجيءُ، وهو جاءٍ حتماً، وعكس ذلك لو كان التعبيرُ:(إِنْ جاءَ نصْرُ اللهِ)،هنا يكون المجيءُ احتمالياً، وهو إلى الشكّ أَقربُ،كقوله تعالى:(حَتىّ يرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اِسْتَطَاعُوا).البَقَرَة/217.

معلومٌ أنّ سُورة الإِسراء مكّية، وهي من " العِتَاقِ الأُوَل." كما جاء عن عبد الله بن مسعود، في صحيح البُخَاريّ، فهي تصِف الأَحداث المستقبليّة التي سوف تقع بسنواتٍ بعد الهجرة، بين اليهود والمسلمين.

(عِبَاداً لَنَا)، وفي الكتاب المقدّس:«والآنَ قد عَهِدتُ بجميع هذه الأَراضي إلى نبوخذنصّر ملِكِ بابل عبدي.» إِرميا/الأَصْحَاح27.

نسبته تعالى هؤلاءِ العبادَ إليه دالٌّ على القرابة والاختصاص، وليس معنى ذلك أنهم عبادُ اللهِ بالمخلوقيّة، كما ذهب إلى ذلك محمّد الطّاهر بن عاشور،في تفسيره، أيْ لكَوْنهم مخلوقين له تعالى، ولو كانوا كفاراً.

لذا لا نرى قول الطَّبَري يتلاءم مع ظاهر الآية، عندما حدَّد هؤلاءِ العبادَ: (بختنصر وجنوده، أَبْغَض خلْقِ الله إليه، سَبَى وقَتَل وخَرّب بيتَ المقدِس.) [13]

و الحقيقة أَنهم (عِبَادٌ لَهُ) بالطّاعة والوَلاء، فاللاَّم للاختصاص، كما يقول النُّحَاة، قال تعالى في آياتٍ، نَسَبَ فيها العبادَ إليه بسبب ولائهم له، واختصاصِه إياهُمْ:(إنّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)الحجر/42، وقوله تعالى: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يمشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً)الفُرْقَان/63،وقوله تعالى:(وَمَا تُجْزَوْنَ إلاّمَاكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ،إلاَّ عِبَادَ اللهِ المخْلَصِينَ.) الصافات/40. وقوله تعالى:(قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ.) إِبْرَاهيم/31. أما إذا كانوا غيرَ مؤمنين،فلا ينسبهم إليه، قال تعالى:(يَاحَسْرَةً عَلَى العِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلاّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئونَ.) يس/30.

(أُولي بَأْسٍ شَدِيدٍ.) هذا الوصف بالشَّجَاعة والإقدام من الله تعالى، لا يمكن سحبه إلاّ على أفراد الجيش الإسلامي في صدر الإسلام، الذين كانوا يحبُّون الموت كما يحب الناس الحياة، إنها مواصفات جيشٍ إسلاميٍّ بقيادة سيد الأنبياء، الذي يتسابق أفراده لنيل الشهادة في سبيل الله. ولم يقع أنَّ أفراد جيش آخر يضاهونه في التّضحية والفداء، على طول التاريخ العسكري للإنسان. (فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً).

جاسُوا الشَّوارع: تخلَّلوها جيئةً وذهاباً مسرعين، من (الجَوَسَانِ)، وهو شدّة التردُّد والحركة.

إنها ديار خَيْبَر، ففي صحيح مسلم، باب غَزْوة خَيْبر، عن أَنَسٍ، أنّ رسول الله (ص) لما دخل خَيْبَر قال: اللهُ أَكْبرُ، خَرِبَتْ خَيْبَر، إنّا إذا نزلنا في ساحةِ قوم فساءَ صباحُ المنذَرينَ،قالها ثلاثَ مرَّار،.قال:وأَصبْنَاها(أَي القرْية) عَنْوَةً. وجاء في الحديث:(فأَجَرَى نبيُّ اللهِ (ص)في زِقَاقِ خَيْبَر.) أَيْ أَجْرَى الفُرْسَانَ ونَشَرَهُم في شوارعها، وشارح الحديث يعلّق في الهامش بقولٍ يتّفق مع العبارة القرآنية:(جَاسُوا خِلالَ الدِّيَار.) , يقول: "الزِّقَاق:الطُّرُقُ الضيِّقةُ بينَ الأَبْنِيَةِ. "

(وَكانَ وَعْداً مَفْعُولاً.) أيْ قدَرٌ جَرَى لا يمكن تجنُّبُه، فهو محقَّقٌ لا محالة وإنْ لم يقع بعدُ.

(ثمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً.) لقد رُدَّت الغَلَبة والظُّهور على الذين بُعِثوا عليهم وعُوقِبوا بهم، في المرّة الأُولى، فالضمير المجرور في:(عَلَيْهِمْ.)يعود على عِبَاد اللهِ، أُولي البأس الشديد، الذين دَمَّروا ديارهم عندما حان وعْدُ أُولاهما،سنة 7 هجريّة، إذَنْ لقد صار الغالب القديم، مغلوباً الآن.

لِنلحظْ استعمال حرف:(ثمَّ) المفيد للتّراخي الزَّمَني الطويل بين (وَعْد أُولاهما)، بين العُقُوبة الأُولى التي حلّتْ باليهود، و بين إعادة النّصر لهم على أعدائهم من " عِبَاد اللهِ ". إنّ هذا التّراخي الزَّمَني قد امتدّ 13 قرناً، وهذا التَّراخي الزَّمني الطويل المقدَّر بهذه المدّة، لا يخرج عمّا يعنيه الحرف "ثمَّ"، في الاستعمال البشَري المعتاد للُّغة، إن القرآن "يعني" و "يدلُّ"،على أحداث المجتمع الإنساني في التاريخ، بمعنى أنّ هذه الأحداث مهما تباعَدَتْ فيما بينها في الواقع الخارجي،فهي تنضغط و تتركّز كلّها داخلَ النصّ القُرْآني:

" فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ "، فالقرآن **يعادل الكَوْن الخارجيّ، معبَّراً عنه في لغةٍ ذاتِ تركيبٍ فريد**.

إنّنا الآنَ نعيش مرحلة:(الكَرَّة)اليهوديّة على المسلمين، التي نقدِّر بدايتها بسقوط الخلافة العثمانية، لتترسَّخ هذه الكَرّةُ وتتأكَّد الغَلَبة بالقرار الأُمَمِي لسنة 1947،الذي منحَ أَرْضَ المسجد الأقصى لليهود.

وأَخيراً تُوِّجتْ الكَرَّةُ اليهوديّة بإعلانهم أنّ القدس عاصمةٌ أَبَدِيّةٌ لإسرائيل، مع ما كان من هزائمنا العسكرية معهم على أَرض الميدان مرَّاتٍ عديدة.

والحقيقة أَنّ المفسر القديم، كان معذوراً عندما اضطرب واحتار أمامَ هذه الآية، مستفهِماً،ضمنيا،وبلسان الحال لا بلسان المقال:أَيُّ حدَثٍ من أحداث التّاريخ الماضي للشعب اليهوديّ يمكن أنْ تُفَسَّر به هذه الآية وتُسقَط عليه؟، فلم يسعفه التّاريخُ الذي سبقه، من تقديم الإجابة الصحيحة على استفهامه؛ وذلك لأَنّ الحادثة لم تقع بعد، وبما أَنّ الرُّؤْية الكَوْنية للأَسلاف عموماً تتّسم بالاعتقاد السائد لديهم أنهم يعيشون آخر الزَّمان و قِمَّةَ التاريخ ونهايةَ العالم[14]، فمعنى الآية وحَدَثُها التّاريخي، لا يمكن أنْ يُبحث عنه إلاّ في المجال الزَّمني للتّاريخ الماضي، الذي تقدَّمَهم،فمَضَوْا،بناءً على ذلك، يجعلون " الكَرَّةَ " التي رُدَّت لليهود،مرّةً بقتلهم لجالوت:(1000ق.م)، وأُخرى بانتصارهم على سنحاريب،الفاتح الأَشُوري، الذي حاصر أُورْشليم سنة701ق.م. وتارَةً أُخرى بتمكّنهم من بختنصر نفسه في نهاية الأمر،على يد فاتح فارسي.

والحقيقة التي ينبغي التفطُّن لها أَنّ اليهود كانوا دائماً فريسةً للغزو الخارجي والاضطهاد الداخلي مرّاتٍ عديدة، ولم يحدِّثِ التّاريخُ بانتصارٍ لهم يستحقُّ هذا الامتنان الإلهي عليهم إلاّ في القرن العشرين للميلاد،إنّ هذا التفسير " الموْرُوث " للآيةِ عن السَّلَف مؤدٍّ إلى الوقوع في المغالطة التَّاريخيّة، أيْ لا ينسجم مع حقيقة ما وقع تاريخيّاً، لكلِّ هذا، ينبغي تأَمُّل ظاهر الآية وواقع التاريخ معاً، قبلَ أيّةِ محاولة تفسيرية للنصّ الإلهي.

و الحقيقة أَنّه إذا أردنا الإنصاف، فينبغي أنْ نعترف بأنّ اضطراب موقف التفسير السَّلَفي أمامَ هذه الآية، له مبرِّراته حقّاً، لماذا؟ لسببٍ بسيط وهو أنّ المفسر القديم، لم يكُنْ يعيش "الكَرَّةَ اليهوديّةَ "،فقد كان أمام آيةٍ قرآنيةٍ بدون واقعة تاريخيّة؛ لأَنّ الآية

ذات معنى مستقبَلي بالنسبة له، وحين لم يفطن إلى هذا الأمر، فإنه سعى بنفسه إلى اختلاق هذه الواقعة التَّاريخية، فسقط في التناقُض بين مضمونِ الآية وواقعِ التَّاريخ.

لكن الخطأ هو في منهج العلماء المحدِّثين وفي رؤْيتهم التَّفسيريّة [15] التي ما تزال حتى الآن تقوم على "وِرَاثَةِ المعْنَى" عن السَّلَف: فمعنى النصّ وتفسيره وحقيقته، وفقاً لهذه الرُّؤْية،يُنْقَلُ ويُتَوَارَثُ،ولا يتجدَّد كشفُه واستنباطه،على الرّغم من تطاوُل الزّمن وحدوث التحوُّلات الكبرى في المعرفة والمجتمع والحضارة، التحوُّلات التي لم يعُدْ يتلاءم معها هذا المعنى المنقول.

إنّ اللّوم يُوجَّه إلى المفسِّرين وشُرَّاح النصوص والعلماء المحدِّثين الذين يعيشون في هذا العصر،وقائعَ(الكَرَّةِ اليهوديّة)ويعانون،بأنفسهم ويلات الغطرسة الإسرائيليّة المتحرِّرة من كلّ المواثيق والأعراف الدّوليّة،في عدائها السافر والخفيّ للإسلام والمسلمين باغتصاب أرضهم ومقوِّماتهم، برغم كلّ هذا،يكتفون، وهُمْ أمامَ الآية،بتسطير المعنى المنقول والشَّرْح الموروث لها،بأنّ الكَرَّة كانت قد تحقَّقت لليهود " بانتصار كورش الفارسي على أَهْل بابل، وردّه وإذْنه لليهود بالعودة إلى أرضهم" [16]، دون مراعاة ظاهر اللّفظ: (لَكُمْ الكَرَّة عَلَيْهِمْ)، أَيْ رَدَدْنَا (لَكُمْ) أَيُّها اليهود الكَرّة على عباد الله الذين كانوا قد جَاسُوا خلالَ الدِّيار في الزَّمَن الماضي، ولم تُردَّ الكَرَّةُ للفرس على أَهْل بابل، ولا هُمْ مخاطَبُون بها إطلاقاً.

إنّ استخدام صِيَغ الأَفعال الماضية للتعبير عن وقائع مستقبليّة قادمة،بدَلَ صِيغة المضارع، والسِّين و(سَوْفَ)، هو أُسلوبٌ فَنّيٌ معجز يشير إلى الكشف المسبَق لهذا المقدَّر على بني إسرائيل من الوقائع، والذي هو ما زال في أحشاءِ الغيب لم يشهده التّاريخُ بعدُ، له حُكْمُ " الماضي" في التحقُّق و الوقوع المؤكَّد.

فالأَفعال: (بَعَثْنَا)، و: (جَاسُوا)، و: (كَانَ وَعْداً مَفْعُولاً)، و:(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ) و:(أَمْدَدْنَاكُمْ)،و:(جَعَلْنَاكُمْ)،أَفْعَالٌ ذاتُ صِيَغٍ ماضيّة لفظاً،لكنّها"مستقبَليّةٌ"معنى، بدليل أنها أَفعالٌ تَرتَّبَ مجيئُهَا كلُّها، في الواقعِ العملي،بعدَ قوله تعالى: (إِذَا جَاءَ)،وهو فِعْل ماضٍ مخلَّصٌ للاستقبال بحرف (إذَا) باتّفاق،ومعلومٌ أنّ ما كان بعدَ فِعْلٍ مستقبَليٍّ فهو مستقبَلٌ، أيْ **مستقبَلُ نُزُولِ سُورَةِ الإِسْرَاءِ لا مستقْبَلُ التَّوْرَاة.**

الظَّاهر أنّ هذا الاستعمال المكثَّف لأفعال الماضي، الذي بدا وكأَنّه وصفٌ تفصيليٌّ لأحداثٍ كبرى، هو من بين الأَسباب التي عَمِلت على توجيه اعتقاد المفسِّرين إلى أنّ الآية تقصُّ ما " كانَ قَدْ وَقَعَ في التَّاريخ، لا ما يجري اليوم."

(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا،فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا المسجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْ تَتْبِيراً.) الإِسْرَاء/7.

النصُّ هنا،يقرِّرُ قاعدة العدل الإلهي، في التعامل مع اليهود على مَرِّ التَّاريخ، ويشير إلى أنهم مخيَّرون في صناعة أحداث التّاريخ،لا مجبَرون على ممارسة الفعل الذي يستحقّ العقوبة، فلو أنهم أَحْسَنُوا-وفي إمكانهم ذلك-العمَلَ، وكفُّوا عن الفساد،

ولوببقائهم على يهوديّتهم، لنالوا على ذلك حسنةً في الدنيا، والقصدُ هنا الجزاءُ الدنيوي، لا الأخروي، إذْ أنّ هذا الأخير لا يستحقُّونه إلاّ بدخولهم الإسلام، فالحَسَنَةُ المشروطة، هنا يُراد بها زَوَالَ ظَنَكِ العيش والدخول في حال الرَّغَد وتحسُّن الأحوال الدُّنيويّة، وهذا هو مفهوم الحَسَنَة، في القُرْآن، قال تعالى:(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ.) النَّحْل/30. وقال تعالى: (إِنْ تمسَسْكُمْ حَسَنَـةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سِيِّئَةٌ يَفْرَحُوابِهَا.) آلُ عمران/120. وقال: (وَآتَيْنَاهُ في الدُّنْيَا حَسَنةً وَإِنَّهُ في الآخِرَةِ لمنَ الصَّالحينَ.) النَّحْل/122.

فالقُرْآن ينصُّ أَنهم لو أَحسنوا لما استحقُّوا العُقُوبات وصُوَر التَّنْكيل،التي تتابعت عليهم في تاريخهم، فهُمْ إِذَنْ أمام احتمالين اثنين:الإحسان أَوِ الإساءة، وسلوكُ طريق أحدهما يؤدِّي إلى نتيجة من جِنس العمل، وهي نتيجة ذاتُ وقوعٍ حتميٍّ يصيب التَّجمُّع اليهوديَّ لا محالةَ.

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُؤُوا وُجُوهَكُمْ.).

هذه الجملة تمّ تفريعُها بواسطة الفَاء: (فَإِذَا..)عن جواب الشَّرط المتعلّق بعقوبة الإساءة: (فَلَهَا.)

فمَجَيءُ وعْدِ الآخرة بالعقاب، كان بسبب الإساءة التي وقعت منهم، وجملة: (فَإِذَا جَاءَ..)، مرتبطةٌ، معنوياً، بمضمون جواب الشرط: (فَلَهَا) ومتفرِّعة عنه ومبيِّنة بتفصيل أكبر، نتائجَ عقاب اليهود على إفساد المرّة الثانية وهي: "إساءةُ الوجه ودخولُ المسجد والتَّتْبِيرُ." وهذا بعد أَن ذُكرت مختصرةً في جملة: (وَإِنْ أَسأْتُمْ فَلَهَا.).

إنَّ أَشكال العقاب الثلاثة، المذكورة في النصّ بعد: (فَإِذَا)، هي شرْحٌ وتبيينٌ لجملة الجارّ والمجرور: (فَلَهَا)،أَيْ فَعَلَيْهَا، بدليل وسيلة الرّبط:الفَاء (فَإِذَا). (فَإِذَا جَاءَ وعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا المسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً.).

هذا جزاءُ الإساءة التي مرَّت في النصّ، وهي ما تزال مستمرّة حتى اليوم، مصاحبة ومتزامنة مع الكَرَّة اليهوديّة على المسلمين، وإمدادهم بالأموال والأنصار والمؤيِّدين من مختلف دول العالم، ولا أَحَدَ يتشكّك اليوم، في السَّيْطرة اليهودية على مراكز المال ومحطّات الدّعاية الإعلامية، وصناعة الرأْي العام، في دُول الغرب الرأسمالي، التي تكفل تدفق الأموال على دولة إسرائيل، وتكسب مناصرين وأَتباعاً، من الغرب والشّرق للإيديولوجيا الصَّهيونية، في أكثر أشكال التضليل الإعلامي في تاريخ الإنسان.

إنهم (أَكْثَرُ نَفِيراً.) حقّاً.

فإذا جاءَ عقابُ المرّة الآخِرة، ماذا،؟ أَيْنَ جوابُ إِذَا؟. نقول في العربيّة: " إِذَا جَاءَ الصّيفُ أَكْرَمْتُكَ، وقال تعالى:(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا..).

فالجوابُ، هنا، هو: (أَكْرَمْتُكَ)، و:(بَعَثْنَا.).

أما هنا فجواب (إِذَا) محذوف، لكن تقديره:(بَعَثْنَا)،أَيْضاً، يدلُّ عليه جوابُ (إِذَا) الأُولى[17]، لكن على مَنْ تعود ضمائرُ الجمع:(يَسُوءُوا، يَدْخُلُوا، يُتَبِّرُوا.)،؟ لا شكَّ أنها تعود، بالضَّرورة، إلى:(عِبَاداً لَنَا.). أيْ أَنّ عباد الله، هؤلاءِ الذين بُعِثوا على اليهود في المرّة الأُولى هُمُ الذين سيُبْعَثُون عليهم إذا جاء وعْدُ الآخِرة، إذْ لا مرجِع للضّمير إلا عليهم، وقد حذف جواب:إِذَا المقدَّر بِـ:(بَعَثْنَا)، لوضوح الدَّلالة على ذلك ولكراهيّة تَكْرار العبارة:(عِبَاداً لَنَا) في الآية الثّانية.

إنّ الحديث في الآية ما يزال مستمرّاً عن بني إسرائيل وعقابهم على إفسادهم في المرّة الأُولى والثّانية، عقابهم " بالعِبَاد " أنفسِهم، ليسوا هُمْ بأعيانهم إذْ قد مضت القرون عن تسليط " عِبَادِ اللهِ " الأَوَّلين على بني إسرائيل، ولكن "بعِبَاد اللهِ " المتأخِّرين الذين يدخلون تحت حُكْم واحد،بسبب وحْدَةِ الانتماء العقدي والدِّيني لهم، أي:" المسْلِمُون". وهذا بدليل المرجِع الواحد للضمائر كلِّها و(عِبَاداً لَنَا) أَوَّلاً،وبصريح العبارة:(وَلِيَدْخُلُوا المسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ) وهو عُمَرُ بن الخَطَّاب، وجمْعُ المسلمين بعدَ انعقاد الصُّلح مع نَصَارَى أُورْشليم، فصَلَّى فيه عُمَر وجعل له حُرْمة المساجد[18].

و دخول جمْع المسلمين مع عُمَر المسجدَ الأَقصى،كان دخولَ تحريرٍ واستلام له من أَيْدي النَّصَارى، وهذا ما يدلّ عليه ظاهرُ الآية:(كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرّةٍ)، ولا يوجد في الآيةِ ما يشير من قريبٍ أوْ من بعيدٍ،إلى تخريبه أوْ تدميره،كما ذهب إلى ذلك كلُّ المفسِّرين، في القديم والحديث[19] .

إنّ دخول المسجد عند مجيء وَعْدِ الآخرة، الذي لم يقع بعد، وافتكاكَهُ من أَيْدي اليهود المستولين عليه الآن، وإِساءةَ وجوههم وتدميرَ ما حوله من مبانيهم، هو مِن بشارات القُرْآن المستقبليّة للمسلمين، بتحريره للمرَّة الثانية،بعد تلك التي كانت على يد عُمَر، رضي اللهُ عنه.

إنّ المفسّر الكبير محمّد الطاهر بن عاشور، الذي عاصر بنفسه حدّةَ الصراع بين المسلمين واليهود، في أَوَاخر هذا القرن، ينغمس بكلّ وجدانه وتفكيره في الرُّؤْية التفسيرية العتيقة للمتقدِّمين، متغاضياً تماماً عن الواقع الحضاري الجديد للمسلمين، وهو واقع ميَّزَتْه "الكَرَّةُ اليهوديَّةُ" على عباد الله المسلمين، ومنصرفاً عمّاذا يمكن أَنْ نستضيءُ بهذه الآيات في فَهْمِ وعلاج الواقع المتردّي الذي نعيشه،نحن اليوم، وهل لها من فهْم جديد ورُؤْيةٍ مغايرة،انطلاقاً من هذا الواقع،نتجاوز بهذا الفهم الرُّؤْيةَ التفسيريّةَ الموروثة.

كيف يُستبعد واقعُ الصراع الإسلاميّ-اليهوديّ المعاصر بأَبعاده الإِقليمية والعالميّة من أَنْ يكون مُراداً للآية ومعنيّاً بها،؟!.

إنّ هذا هو ما يسبِّبه منهجُ "وِرَاثَةِ المعْنَى" في التَّفسير.

لقد اضطرب ابنُ عاشور كثيراً،في موقفه التَّفسيري،حين ذهب إلى أَنّ ضمير

الجمع: (لِيَسُوءُوا)،يعود إلى (عِبَاداً لَنَا)، المبعوثين على اليهود من جنس آخَر، ولا يعود إلى (عِبَاداً لَنَا) المصرَّح بذكْرِهم، وذلك بحُجَّة،«أَنَّ الذين أَسَاءُوا وَدَخَلُوا المسجدَ هذه المرَّة، أُمّةٌ غير الذين جاسوا خلالَ الدِّيار، بسبب شهادة التّاريخ وأقوال المفسِّرين.»[20].

ثم يلخّص في النّهاية موقفَهُ،استناداً إلى لُغة النصّ : « أَنّ ضمير:لِيَسُوءُوا ولِيَدْخُلُوا عائدٌ إلى: (عِبَاداً لَنَا) باعتبار لفظه لا باعتبار مَا صَدَقَ المعاد.»!!.

أَيْ أنّ الضمائر تعود، فعلاً، إلى:(عِبَاداً لَنَا)، لكن ذلك لفْظاً فقط، لاحقيقةَ ما يشير إليه اللَّفْظ من عبادٍ آخرين، جنساً و ديناً،لأَنّ هذا الاختلاف بينهم لا ينفي عنهم صفةَ كَوْنهم عباداً للهِ، وهذا كلُّه تعسُّفٌ لا مبرِّرَ له في التأْويل، وهو إرغامٌ لدلالات النصوص لتتَّفق، قَسْراً، مع معارف المفسِّرين وأَفهامهم، يأْباه عليهم ظاهرُ الآية وواقعُ التَّاريخ معاً كما أَسْلَفْنَا، وكيف يجوز أَنْ يكون مُراداً بـ (عِبَاداً لَنَا) في المرَّةِ الأُولى البابليُّون، وفي المرَّةِ الثَّانية الرومانيُّون؟ وتكون مرجِعاً واحداً لضمير الجمع الغائب لهؤُلاءِ وأُولئك معاً؟، وهذا لا يصحُّ أُسلوباً و لا تاريخاً ولا شرعاً، في دلالة التَّسْمِية بعبادِ اللهِ.

إنّ وراثة المعنى عن السَّلَف والاحتفاظ بالرُّؤية التّفسيرية السابقة التي تفترض، ضمنيّاً، أَنّ نصوص القرآن قد أُفرِغت معانيها ودلالاتها، في الزَّمن الماضي، بشكل نهائي، وأَن حقيقة "معنى الآية"،لا يتّضح تدريجياً مع تطوُّر الزّمن والتّاريخ، وإنما يُبْحَث عنه في وقائع الماضي.

إنّ موقعنا الزَّمني:(نهاية القرن العشرين)، ومرحلتنا الحضاريّة الجديدة،(مرحلة الكَرَّة اليهوديّة)،مع التّفسير المنهجيّ القائم على تأمُّل معنى الآية في ضوء ملابسات الواقع المعيش، في أَبعاده الاجتماعيّة والسياسيّة، كلُّ ذلك أَدَوَاتٌ مساعدة على رُؤية هذه الآية في دلالاتها العالميّة الرّاهنة، ولكي تبدو لنا هذه الدّلالاتُ متناغمةً يُكمل بعضها بعضاً، ينبغي أنْ نُسقط هذه الآيات،ابتداءً من قوله تعالى:(وقَضَيْنَا.)،إلى قوله:(حَصِيراً.) على طول المجال التَّاريخي الذي يتقدَّمُنَا، من نزول السُّورة،في مكَّة، حتى أيامنا الرّاهنة فنجد أنّ هذه الآيات كلَّها،كانت،بعد نزول السُّورة بسنواتٍ، ذاتَ دلالة مستقبليّة، وإلى أنْ وقعت غَزْوَةُ خَيْبَر،في السَّنة السابعة للهجرة، وتخريب المسلمين لديار اليهود وإجلاؤهم إلى الشَّام صارت الآية، التي كانت جزءاً من الغيب المتعالي، واقعاً متحقِّقا من التّاريخ، وهي قوله تعالى:(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً.). فالعِبَادُ هُمُ الجيش الإسلاميُّ بقيادة الرسول (ص)، و ليس جيش بخْتَنْصَر، والدِّيار ديارُ خَيْبَر،وليست ديارَ بيت المقدِس، والتّخريب والتّدمير إنما وقع لهذه الدّيار اليهودية بضواحي المدينة، ولم يمسّ بيت المقدس إطلاقاً بمجيء وعد الأُولى، أمّا الآية:(ثمّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وأَمْدَدْنَاكُمْ بأَمْوالٍ وبَنِينَ وجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً، إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا.) هذه الآية تخصّ حاضرنا الذي ما يزال مستمراً، ونطلق عليه

اسمَ مرحلة "الكَرَّة اليهُوديّة " في تاريخ أُمّة الإسلام، وهي مرحلة تمتدُّ بنا نحو المستقبل دون أن نقدِّر نهايتها، وإنْ كانت،فيما تبدو،قريبة، وهذا استشفافاً من قوله تعالى:(وإنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فإذَا جاءَ وعْدُ الآخرة.) فتفريع وعْدِ مجيء الآخرة بالفاءِ:(فإذا)،على جواب الشَّرط: (فَلَهَا)، يوحي بتقارُب حلول العُقُوبة على الإساءة اليهوديّة التي نعيشها الآن بكلّ نَكَبَاتها، المهمّ، أنّ مضمون الآيتين يشير إلى واقع تاريخي ومرحلة حضارية بدأتْ ومازالت لم تنتهِ بعد، القسم المتحقِّق تاريخياً، من هذه الآيات كلّها هو من قوله تعالى:(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهما، بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ ...) إلى قوله: (وإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا.).

يبتدئُ هذا التحقُّقُ التَّاريخي بغَزْوَة خيبر، حتى الآية:الخامسة والسادسة ونصف السابعة من السُّورة، ويستمرّ إلى أيامنا المعاصرة،أيْ أنّ الفضاء الزّمني للإسلام : ماضياً وحاضراً ومستقبلاً هو الظَّرْفُ، أو الوعاءُ للإفساد في المرَّتينِ و للعلوّ الكبير ولوعد الأُولى والآخرة.

(فَإِذَا جَاءَ وعْدُ الآخرة ليسوءوا وجوهَكم و ليدخلوا المسجدَ كما دخلوه أَوّل مرّة وليتبِّروا ما عَلَوْا تتبيراً.).

ابتداءً من حرف الفاء هذه، المفرَّعة عن الفاء السابقة الدّالة على تعقيب الجزاء على الإساءة مباشرةً:(أَسَأْتُمْ فَلَهَا.)، ابتداءً من هذه الفاء، إلى قوله (وجَعَلْنا جهنَّمَ للكافرين حصيراً.) فالآيتان تخصَّان مستقبَل الأُمّة الإسلاميّة مع اليهود.

إنّ الحدث المستقبلي الهامّ، المتكوّن من إساءة الوجه ودخول المسجد بشكل يشبه المرّة الأولى، وتدمير ما يحلِّقون فوقه من المباني،هي نتائج عقابية متوقَّعة، فرَّعَها النصُّ الإلهيُّ عن السبب المتحقِّق ميدانياً وهو:الإساءة الرّاهنة التي نعيش ويلاتها الآن، وهذا التفريع بالفاء:(فَلَهَا، فَإِذَا..)، يفيد الوقوع المستقبلي القريب، ومرجِع الضمائر الثلاثة: (يسوءوا، يدخلوا، يُتَبِّروا) حُذِف من النصّ بشكل غريب لا يبدو مستساغا أُسلوبياً: (فإذا جاء وعْدُ الآخرة ... ليسوءوا..) إلاّ إذا جُعل: " عباداً لَنَا.".

إذَنْ فقد حُذِف من الجملة اكتفاءً بذكره في الجملة الأولى، وما يؤكّد ذلك هو عبارة:(كما دَخَلُوهُ)، إشارة واضحة إلى أنّ الداخلين الآنَ هُمُ أنفسهم الذين دخلوا في الزّمن الماضي:جنساً وديناً:(عباداً لنا.) أيْ مؤمنون،إذْ هو مرجِع الضمائر الثلاثة في الجملة الثانية، وهذا الدخول " الثّاني" للمسجد لا يشبه الدخول العُمَري، الذي تمّ في حماية الجيش الإسلامي المحاصر، وهو دخول فتح واستلام واسترجاع للمسجد.

أما الدّيار التي جاس عبادُ الله خلالها، فليست بيت المقدس ولكنها ديار خيبر.

كيف سلَّمَ التفسير الإسلامي، قديماً وحديثاً، أَنّ الدِّيار التي جاس عبادُ الله خلالها هي ديار بيت المقدس المحيطة بالمسجد الأقصى؟ وأَنّ تدميرهم مسّ الدّيارَ والمسجد معاً، و لا دليل من ظاهر النصّ ولا من باطنه يشير أو يوحي بهذا المفهوم؟. إنها الرِّواية الإسرائيلية المسؤولة عن التَّوجيه الذِّهني للمفسّر وهو يقف أمام النصّ القرآني،

فيتابعها، ويلتزم بها على أنها حقيقةُ ما يدلّ عليه النصُّ، قبل أن يلتزم بالنصّ ذاته والتجرُّد له بعيداً عن أَيّ تأثير خاصّ.

نلحظ جيّداً أنّ الشرح البياني والتحليل اللغوي الجزئي للنصّ، لا يسعف شيئاً في كشف معناه الصحيح، والاهتداء إلى أَبعاده الدّلالية العامّة، إذا كان المفسر ضحيةَ رؤْيةٍ تفسيرية خاطئة يَرِثُها عن السابقين من غير التشكيك فيها أو إخضاعها للفحص والمراجعة ؛لأنّ التّحليلَ اللُّغوي والبياني يصير، عندئذٍ، أَداةً لدعم الرُّؤْية التفسيرية، المسلَّم بصحّتها، وتبريرها،فينتج المفسِّر خطأً ثانياً، " فدُخُولُ المسجِد " عند ابن عاشور هو: «دُخولُ غَزْوٍ، يقرنه التَّشبيه في قوله:(كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ.)، المراد منه قوله (فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيارِ.) .» ؟! [21]

فإذا شُبِّه دخولُ المسجد في المرَّة الثَّانية بدخول المرّة الأُولى، وعلِمنا أَنّه قد مسَّه التدميرُ في المرّة الأُولى،بدليل قوله تعالى:(فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيارِ.) إِذَنْ فقد دُمِّرَ للمرّة الثّانية؛ لأَنّ وجْهَ الشَّبَه بين دخول المرَّتَيْنِ هو " التَّدْمِير" والتَّشْبيه منصوص عليه: (كَمَا دَخُلُوهُ أَوَّلَ مَرّةٍ.).

كيف استدلَّ ابنُ عاشور بعبارة:(فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيارِ.) على أَنها ديارُ بيت المقدس؟. وعلى وقوع التَّدْمير للمسجد من بين الديار؟.

نتأمّل قوله تعالى:(وَلِيَدْ خُلُوا المسجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ.)، ونسأل :هل تعني عبارةُ: (دَخَلَ المسْجِدَ.) خَرَّبَهُ ودَمَّرَهُ ؟!

يُضاف إلى ذلك، أَنّ لفظ "المسْجِد" تَسْميةٌ إسلاميّة لمكان العبادة، ولو كان دخول المسجد،للمرّة الأُولى والثّانية، قبلَ الإِسلام لجاء في القُرْآن باسم " المحراب". فإِسْمُ مكان العبادة،في الفضاء الزَّمَني السابق على الإِسلام هو: الهيكل، أو المعبد، أو البيعة، أو المذبح، أو المحراب، لكن الاسم الأَخير هو الذي فضّل القرآنُ استعماله في تَسْمية المعبد الذي بناه إبراهيم عليه السلام، والقرآنُ يذكره بهذا الاسم أيامَ داود النبيّ، في الأَلف الأُولى قبل الميلاد: (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا المحْرَابَ.) ص21.

ويستمرُّ القرآن محتفظاً باسم "المحراب" لمعبد إبراهيم، بعد أَلْفِ سنةٍ من ذلك، أَي القرن الأَوَّل المسيحي، وذلك حين يتحدَّثُ عن زكريا، كافلِ مريم أُمِّ المسيح:(فَنَادَتْهُ الملائكةُ وَ هُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي في المحْرَابِ.) آلُ عِمْرَان/39.

إِذَنْ، معبد إبراهيم: "المسْجِدُ الأَقْصَى"،في المجال الزَّمني السابق على الإِسلام مذكور في القُرْآن دائماً باسم " المحْرَاب "، فكيف يُطلَق عليه اسمُ المسجِد، عند غزْوِ بختنصر لأُورشليم، وهو حَدَثٌ تاريخيٌّ وقع بين زمن داود وزكريا، أَيْ سنة 586 ق.م؟.

إِنّ معبد إبراهيم، أو المحراب، لم يتحوَّل اِسمه إِلى " مَسْجِد" أَو " المسْجِد

الأَقْصَى" إلاّ بعد الإسلام. فالذي يبيّن لنا زمن الواقعة التّاريخية التي مسّتْ معبدَ إبراهيم، أَكانتْ قبل الإسلام أَمْ بعدَهُ،هو اقترانها بذكر لفْظِ "المحراب" أَو" المسْجِد"، و: (تَسَوَّرُوا المحرابَ.) و:(يُصَلِّي في المحرَابِ.)، وصْفٌ لما وقع للمعبد قبل الإسلام، أمّا: (لِيَدْخُلُوا المسْجِدَ) فوصْفٌ لما وقع، أَوْ يقع للمعبد ذاته بعد الإسلام، والمحرابُ، والمسْجِدُ،في النصّ القُرْآني إشارةٌ إلى شيءٍ واحد،وهو: معبد إبراهيم، والاختلاف في التَّسْمية إشارةٌ إلى اختلاف الزَّمَن التّاريخي: قبلَ الإسلام أَوْ بعدَهُ.

إذَنْ فالمحراب الإبراهيمي صار يحمل اسمَ "مَسْجِد"،بعدَ سُورة الإسراء، التي استهلَّتْ بـ:(مِنَ المسْجِدِ الحَرَامِ إلى المسْجِدِ الأَقْصَى.)،بسنتَينِ قبلَ الهجرة،ونستنتجُ أَنّ هذه الآيات التي نعرض لها بالتفسير،هنا،كانت كلُّها ذات مضامين مستقبليّة، إذْ هي تحدّثتْ حين نزولها،عن دخول المسلمين **القادِم** للمسجد،الذي تحقَّقَ واقعياً بعدَ 19 سنة من نزول السُّورة، أَيْ في سنة 17 هـ، وأَثْنَاءَ الدخول العُمَري له،كان في واقع أَمْرِه ما يزال "محراباً." فتحرَّى عُمَرُ مكانَهُ وصلَّى فيه، ولكنه سُمِّيَ " مسجداً" قبلَ 19 سنة من هذا الدخول، أيْ سمَّتْهُ سُورةُ الإسراء باعتبار ما سيؤول إليه أَمره داخلَ فضاء الإسلام.

ولو كان سَنْحَاريب، أَوْ بختنصر، هو صاحبَ الدخول الأَوّل لذُكر باسم المحراب، ولجاء التَّعْبير:(وَلِيَدْخُلُوا المحرابَ كما دَخَلُوهُ أَوّلَ مَرّةٍ.) ؛لأَنّه كذلك،كان يُسمّيه القرآنُ في تلك الفترة أَوْ يصِف ما وقع له فيها.

(وَلِيُتَبّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً.)،العملية الهجومية على مدينة "المسجد"، يصحبها ثلاثةُ أَحداثٍ مميّزة:اِسْوِدَادُ الوَجْهِ، لأَفراد المجتمع اليهوديّ فيها،من الغدر والهَلَع، ودخول المسجد،دخولَ استرجاع وافتكاك له من الأَسْر اليهوديّ، لا تدميره أَوْ تخريبه، لكن هناك تدميراً شديداً،حسْبَ النصِّ، لما حول المسجد من الديار، وليس في النصّ ما يدلُّ بتاتاً أَنّ التَّدْمير يصيب المسجد، وإنما الرُّؤْية التفسيرية السائدة عن الغَزْوِ البابلي، الذي دمّرَ بيت المقدس كلّها، هي التي تفرض نفسَهَا على معنى الآية، وتوجِّهه ليتّفق معها،ولو على حساب الظَّاهر اللُّغوي للنصّ.

إنّ تَدْمِير:(مَا عَلَوْا)،كان يبدو للمفسّرين القدماء - وهُمْ معذورون في ذلك - تعبيراً مجازياً، لأَنّ تدمير المباني،في العُصُور السّابقة لم يكن بإتيانها من فوقها،وإنما كان يتمُّ بتقويض الجُنْدِ لها من أَسْفَلِها، إذَنْ:(مَا عَلَوْا)،عند المتقدّمين:«أَيْ مَا غَلَبُوا عليْهِ مِنْ بِلادِكُمْ.» [22] .

عَلا العدوُّ المبانيَ والدّيارَ، فِعْلٌ لغويّ لا يمكن إدراكه إلاّ بمعناه المجازي،عند المفسّرين الأَوائل،فَعَلا الدّيارَ تعني،مجازاً،لديهم:اِستَوْلى عليها وقَهَرَها،ولا تعني فعلاً حقيقياً، أَيْ جاءها من فوق سمائها.

والغريبُ أنّ التعبير ما يزال يُنظَر إليه على أنه "مجازٌ" لاحقيقة، في التفسير

الحديث، المنغمس في الرُّؤْية التفسيرية الموروثة، فعلى الرغم من التطوُّر الحاصل في وسائل التَّدمير في العصر الحديث، والذي يمكِّنُنَا من فهم العبارة على حقيقتها: "علا العدوُّ الديارَ أو المدينةَ = حلَّقَ فوقَها"، على الرغم من ذلك فالعلوُّ هو :« علوٌّ مجازيٌّ، وهو الاستيلاءُ و الغَلَب.»[23].

إنَّ العبارة لم تعُدْ مجازاً، عندنا، نحن المعاصرين، بل هي تعبير حقيقيّ.

علا العدوُّ المدينةَ أو الديارَ، أيْ حلَّق فوقها بالطائرات، وأكبرُ أنواع التَّدْمير كما نعلم، هو ما يتمُّ الآنَ بهذه الوسيلة، وما الذي يمنع من أنّ الآيـة تشير إليها و تعنيها، إنَّنا أيضاً مخاطَبُون بالقرآن،اليوم، وهذا يعني وجوب أنْ نفهم دلالات النصوص وفاقاً لطاقاتنا العقلية والعلمية المتوفّرة لنا حالياً، لا أنْ نتابع " أَفْهَامَ السَّلَف"، إذْ استبان عدم ملاءمة هذا الفهْم لظاهر النصّ ولواقع التّاريخ. إنّ الآيةَ لا تمنع أو التّعبير القُرْآني:(مَا عَلَوْا) لا يمنع أنْ نفهمه على حقيقته،أي التّحليق الجوِّي، ولكن الذي يمنع هو:الفُهُوم السابقةُ للنصّ .

(عَسَى رَبُّكُم أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا.) ليست الرَّحمة المتوقَّعة من الله تعالى هي أنْ يغفر لهم أوْ أنْ يدخلهم الجنّة، إذْ أن اللّعنة قد حقَّتْ عليهم،كما سبق،من الله والملائكة والناس أَجْمعين، إلاّ من أَسْلَمَ منهم،وإنما الرَّحمة هنا إشارةٌ إلى فترات الأَمْن والرَّخَاء،التي قد تخلَّل تاريخَهم الطويل على الأَرض، وليست تعني توقُّعَ المثوبة الأُخروية لهم.

ومما يؤيِّد أَنّ "الرَّحمة" هي، هنا، فترةُ الأَمْن والرَّخاء الدُّنيوي، تَتَبُّعُ مفهومها في مواضع أُخرى من القرآن، قال تعالى: (وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ.) المؤمنون/75. وقوله تعالى:(وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي.) فُصِّلت/50. وقوله تعالى: (وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنّا رَحْمَةً فَرِحَ بها.) الشُّورى/48.

وقوله تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيُر الكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ.) الملك/28. وَلْنَلْحَظْ جيِّداً أَنّه بعد إنهاء "كَرَّتِهِمْ" الرّاهنة على المسلمين، والتي سوف تتوَّجُ باستعادة المسجد منهم،حسبما يدلُّ عليه سياقُ النصُّ القرآني، يثور تساؤلٌ في الذِّهن مُفَاده:هل يمكن،إذَنْ،أَنْ نتصوَّر نهايةً للصراع الأَرضي بين الإسلام والدِّيانات الأُخرى التي يتقدَّمها في العداء، الوعيُ الدِّينيُّ اليهوديّ؟، وبالتالي لن تقوم لهذا الوعي قائمةٌ بعد استعادة المسجد من اليهود وتَتْبيرهم هناك؟.

الآية تقدِّم جواباً وإنْ كان احتمالياً، عن هذا التساؤل:(عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ.) إنّ القضاء التامّ على الوعي الديني اليهوديّ بشقَّيْهِ: المعنى الإيديولوجي والمادّي المسلّح، لن يتحقَّق بانتهاء "الكَرَّةِ اليهوديّة الرّاهنة". فالدعوة الإسلامية لن يأتي زمنٌ تصير، فيه، تمارَس من غير عوائق، كما أَنّ الجهاد الإسلامي لن يفقد يوماً ما مبرِّرات وجوده، وفَرْضيّته، أو يصير شكلاً من أشكال الإرهاب والعنف، بسبب ما يُظنّ من

القضاء المستقبلي على العدوّ الحامل للوعْي الدّيني المضادّ.

إنّه ماضٍ إلى يوم القيامة[24]، وهذا المضيّ لا يعني إلاّ وجود عدوٍّ تنبغي مقاومته على الصعيد الفكري والعملي معاً.

الصِّرَاعُ العربيّ الإِسْرَائِيلي ونهايةُ التّارِيخ:

إنّ الانتصار الحاسم والنّهائي للّيبيرالية الغربية على النموذج الاشتراكي،في تسيير الدولة والمجتمع، في الثمانينات من هذا القرن، لن يقود هذا الانتصار إلى " نهاية التّاريخ"[25]، أي السّيادة العالمية للمفاهيم الليبرالية حول المجتمع والدولة، دون الحاجة إلى الدخول مرّة أُخرى في صراعٍ مع قِيَمٍ وبدائل حضارية مغايرة ومنافسة في العالم.

إنّ فرصة تحقيق مثل هذا النصر الإيديولوجي لليبيرالية الغربية على الوعي الإسلامي ورُؤْيته الكَوْنية لا تبدو متوفّرة في واقع الصراع الإيديولوجي الرّاهن،وهذا اعتماداً على دلالات الكتاب، وانسجاماً معها.

(عَسَى رَبُّكُم أَنْ يَرْحَمَكُمْ.)،يمكن أَنْ نعُدّ هذه الآية إشارة إلى الإمكان المستقبلي لإعادة التشكُّل السّياسي، أَوِ الرَّفاه الاجتماعي لليهود، وإن كان يبدو ذلك موغِلاً في المستقبل؛ لأنّه يُتوقع حدوثه بعد إنهاء مرحلة الكَرّة اليهودية الرّاهنة، التي ما تزال تمتدُّ بنا نحو المستقبل، إلى حين تدمير الكِيان الإسرائيلي الحالي، المحتوم بدلالات نصوص الكتاب.

إنّ هذه العبارة القُرْآنية تُبقي على اطّراد السُّنة الإلهية في التدافع الذي يصنع التاريخ: (وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ.) البَقَرَةُ/251.

وَإِنْ هُمْ عادوا، بعد الرّحمة الإلهية، أو التّمكين المحتمَل:(عَسَى) إلى الإفساد، فإنّ وعْدَ الثّالثة واقعٌ بهم لا محالة، إذْ لا خروجَ عن دلالات الكتاب، فهي حتمية تاريخيّة.

إنّ القرآن عندما استعمل، وبشكل معجز، الصِّيغة الاحتمالية في أُسلوب العبارتين: (عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا.)، توقَّع لليهود الرَّخاءَ أَو الاستقرار المستقبلي، وإِنْ كان ذلك غير متوقَّع إلاّ ضمن الهيمنة السياسية للإسلام، ثمّ أَبْقى المجال الزمنيَّ مفتوحاً على إمكانية انخراط المجتمع اليهوديّ في الإفساد مرَّةً أُخرى، لكن داخل المجتمع الإسلامي، أَيْ إفسادٌ لا يصاحبه علوٌّ بالمفهوم القرآني، فإنما يشير التعبيرُ القرآني إلى مرحلتين حضاريتين تَعْقُبانِ (الكَرّة اليهوديّة) الرّاهنة، إنها أَدوارُ التاريخ المستقبلي لليهود: رخاءٌ واستقرارٌ، يتلوه إفسادٌ في الأَرض، يأْتي بعده الوقوعُ في العقاب الإلهي، وِفاقاً للسُّنَن التّاريخية الثابتة.

إِذَنْ إفسادُ المرّة الأُولى، فعِقَابٌ،بعدَه، تمّ على يد نبيٍّ هذه الأُمّة، وبعد قرونٍ من ذلك يقع منهم إفسادٌ مع علوٍّ في الأَرض نعيشه الآن، ينقطع بإنهاء كَرّتهم على المسلمين، ثمّ بعد ذلك قد يشهد الزمنُ المستقبليُّ إفساداً يهودياً تتلوه عقوبةٌ إلهيّة، كلُّ ذلك شريط يصوِّر المسار التاريخي للشعب اليهودي على الأَرض من سنة 7 هجرية،

إلى آفاقٍ مُوغِلة في الزمن المستقبل. ليس هذا توقعاتٍ مستقبليّة من قبيل الرَّجْم بالغيب، لكنها (توقُّعات) مستوحاة من ظاهر النصّ القُرْآني: (وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا.) إشارة إلى فترة أَكثرَ إيغالاً في المستقبل من الأَوّل:(عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ.)؛ لأَنها تعقُبُها وتنتُج عنها، ولكنها ليست نتيجةً حتمية مؤكَّدة،كما كان الأَمرُ مع الآيات المتقدّمة، لأَنّ صياغة النصّ توحي أَنّ هذه الأَحداث " الرَّحْمَة، والعودة إلى الإفساد، ثمّ العُقُوبة على ذلك"، مرتبطة بشروط قد لا تتحقّق على أَرض الواقع:"عَسَى"و:"إِنْ عُدْتُمْ."،فالعودة اليهوديّة المحتمَلَة إلى الإفساد، التي استلزمت إيقاعَ العقاب، إِنْ حدثت، متعلّقة بفترة الرّحمة السابقة، وهي ذات وقوعٍ شكّي كذلك:"عَسَى"، والمشروط بالمحتمَل يبقى محتملاً.

بهذه الجملة القُرْآنية ذات الوقوع المستقبلي الاحتمالي البعيد في الزّمن، يُخْتَم الشريط التاريخيّ للكيان اليهوديّ على الأَرض، وهو شريط يقدّمه القُرْآن مطبوعاً بالصّراع والتّدافُع،من بدايته إلى منتهاه،ليؤكّد النصُّ حقيقة هامّة وهي أَنّ الإيديولوجيا اليهوديّة وممارساتها العملية تمثّل أَخطرَ أشكال التحدّي للإسلام، في جميع أَدوار التاريخ، ولكن من السُّهولة الاستدلال، من النصّ، أَنّ الاستعلاءَ الإسرائيلي لن يتحقّق مرّةً أُخرى بعد دخول المسجد الأَقصى وتدميرِ ما حوله، أَيْ بعد أُفُول الكَرّة اليهودية الرَّاهنة.

فهذه العودة التي جاءت في النصّ بصيغة الاحتمال المستقبلي الضعيف الوقوع: (وَإِنْ عُدْتُمْ.)، إنما هي عودةٌ إلى الإفساد فقط، مجرَّدةٌ من العلوّ.

التفسيرُ الإسلامي أَلقى بدلالات هذا النصّ وأَحداثه الحضارية الكبرى في حياة هذه الأُمة، خارجَ المجال الزّمني للإسلام،ولم يَرَ في النصّ من الوقائع، ما ينتمي إلى الفترة الإسلامية إلاّ قوله تعالى:(وإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا.)،وهذه العودة إلى الفساد حدثت، وفاقاً للتفسير الشائع، أيامَ البِعْثة[26] المحمّدية، غير أَنّ سيّد قطب وسّع من دلالة الآية، فجعلها تشمل العودة إلى الإفساد في هذا العصر:« في صُورة إسرائيل، التي أَذاقت العربَ أَصحابَ الأَرض الويلاتِ. »[27].

والحقيقة أَنّ الإفساد بهذه الممارسة يسمّى: "عُلُوّاً"، لأَنّه فسادٌ مدعوم بسلطة سياسية قاهرة،فهو إِذَنْ من محقَّقات"وعْدِ الآخرة"،التي ما نزال نعيش أحداثها حتى الآن، إِذَنْ وقائع الإفساد الإسرائيلي الرّاهن لا تطابق ولا تفسّر قوله تعالى: (وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا.)، لأَنّ في هذه العبارة إفساداً بلا عُلُوّ،فهي إِذَنْ تصِف حالةَ فترةٍ زمنيةً تقع في أَغوار المستقبل القادم.

من الغريب ألاّ ينصبّ اهتمام المفسّرين والدارسين الإستراتيجيين والأَكاديميين، على فترةِ ما بعد الكَرّة اليهودية الرّاهنة، التي تحدث عنها القرآن بوضوح تامّ.

ولم تعرض دراسات المهتمّين بالصراع العربي الإسرائيلي، إلى الاستعانة بنصوص القرآن[28] ودلالاته، لفهْمِ المعضلة اليهوديّة جيّداً والتعامُل معها.

كلُّ ذلك بسبب الاعتقاد الشائع الذي رسّخه منهجُ التفسير التقليدي: أَنَّ النصّ يدُلّ

على، ويُفسَّر بأَحداثٍ ووقائع مضتْ، ولا يعني النصُّ أَوْ يشير إلى التحدّيات الرّاهنة، فضلاً عن المستقبليّة.

إنّ الصراع العربي- الإسرائيلي، لم يَعتمد حتى الآن أَداةَ الوعْي القرآني، في المواجهة مع اليهود. (وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً.)

هذا التذييل في الآية،الذي أُنهى به الاستعراضُ التاريخي للوجود اليهودي على الأَرض، اختتم بذكر العقاب الأُخروي، زيادةً على أَشكال العقاب الدنيوي المذكورة.

إنّ مسلسل العقوبات الدنيوية كان بسبب الممارسة "القَوْميّة" لأَبشع أَنْواع الفساد، ثم جُعلت جهنّم عقاباً ومحبساً لهم بالذات، بسبب التكذيب القَوْمي المنظّم إيديولوجياً، بماذا؟ ، برسالة الإسلام؛ لهذا سُمّوا في ختام الآية "كافرين"، أَمّا ممارساتهم للإفساد السابق على الإسلام:"العصيان، قتْل الأنبياء .. الخ"، فقد كانت من غير كفر بالرسالة الموسوية، كفراً جماعياً يوجب إدخالهم النار، وإنما كان هذا موقفهم مع الإسلام حين ظهر.

إنّ الحديث في النصّ القرآني، من أَوّله إلى هذه الخاتمة، حديثٌ عن بني إسرائيل و هم يُفسدون ويكفرون، لا كأَفرادٍ داخل مجتمع مؤمن في مجمله، ولكن كشعب بأَكمله أَوْ طائفة في مجموعها، يرتبط أفرادها برباطٍ دينيّ واحد" اليهوديّة" ويتموقعون في موقف جماعي مضادّ لدين آخر أُنزل على نبيٍّ من أُمّة أُخرى، ولم يعتبروا كافرين مستحقّين للعذاب الأُخروي المذكور، وبشكل جماعيّ،إلاّ بعد موقف الرَّفْض " القَوْمي" منهم للدِّين الجديد، الذي حدث في تاريخ الإسلام، فدَوْرات العقاب الإلهي في التّاريخ، إنما هي بسبب إفسادهم في الأَرض، والأَرضُ هنا لا تتعدّى الفضاءَ الجغرافي والزمني للإسلام، والعقاب الأُخروي هو بسبب تكذيبهم بنبيّ الإسلام تكذيباً مبنيّاً على أُسُس إيديولوجيّة قومية بحتة.

(وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائيل اُسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً.) الإِسْرَاء/104.

استكمالُ هذا الموضوع، موضوع التّاريخ الأَرضي لبني إسرائيل، في آخر السُّورة ، وبعدما يقرُب من مائة آيةٍ مَضَتْ، لم يتّضح سببه بعد،نعمْ، إنّ إيجاد الصّلة بين بداية السورة ووسطها ونهايتها، أَمْرٌ يقتضي البحث المتأَنّي؛ لأَنّه من أَعوص المسائل التّفسيرة.

(وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ.) هو قولٌ تكوينيٌّ لا تشريعيّ، أَيْ مَكَّنَ لهم، بعد الخروج من مصر ،أسبابَ الانتشار في الأرض، لكن أَيُّ أَرضٍ؟، مصْر أم الشَّام؟ ،أَرضُ مصْر ◌َلم يعودوا إليها ويستقرّوا بها بعد الخروج، كما يشيع في التاريخ[29] .

أمّا أَرْضُ الشّام فالقرآن نفسه يقرّر أَنّ بني إسرائيل جَبُنُوا عن دخولها: لأَنّ(فيها قَوْماً جبّارين.) المائدة/22، بل أكّدوا بلسانهم: (إِنَّا لن نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا.) المائدة/24، إِذَنْ لا دليلَ في النصّ على تخصيص الأَرض بأَرضِ الشّام أَمْ أَرض

مصْر، وإنما هي مطلق الأَرض، وإطلاقها يخوِّلنا أَنْ نراها تشمل بلادَ العالم القديم المعروف آنذاك، والعالم المستكشف حديثاً،لقد قال تعالى فيهم:(وَقَطَّعْنَاهُمْ في الأَرْضِ أُمَماً،مِنْهُمُ الصَّالحون وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ، وَبَلَوْنَاهُمْ بالحَسَنَاتِ والسَّيئاتِ لعلَّهمْ يَرْجِعُونَ.) الأَعْرَاف/168. ينبغي لنا أَنْ نفهم الآية في أَبعادها الكَوْنية، وأنها تعني إِذَنْ، التَّشتُّتَ العالمي الدائم لليهود، على كافّة أنحاء الأَرض بعد رفْضهم الدخولَ إلى فلسطين أيامَ موسى عليه السلام.

فالآيةُ جاءت مباشرة بعد قوله تعالى:(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ القِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ العَذَابَ.) الأَعْرَاف/167. فالآيةُ نصّتْ على ذكر مسار التّاريخ الأَرضي لليهود على أَنّه سلسلة من الاضطهاد والآلام والمتابعة، على شكل حِقَبٍ تاريخية متعاقبة، وهذا بالطبع،لايتلاءَمُ مع تصوُّر كَوْنهم مستقرِّين في وطنٍ واحد، مصرَ أَوِ الشَّام مثلاً، وإنما ينسجم معنى الآية مع الواقع السياسي والاجتماعي لليهود في العالم، في هذا العصر،حيث يشكِّلون دوماً أَقَلِّيةً دينية وإيديولوجية نشِطة في جميع البلدان.

وهذا التوزُّع العالمي لليهود، وتقاطُرُهم من كلّ أنحاء الأَرض إلى فلسطين، يتمّ بتأثير من الدّعاية الصهيونية والتّمويل الغربي.

إِذَنْ هذا الواقع السياسي العالمي لليهود في العصر الحديث، هو الشَّارِح الوحيد لمعنى الآية: (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً)، وعْدُ الآخرة هنا،هو وَعْدُ المرّة الآخرة، وهي نفسها التي ذُكرت في أَوّل السُّورة: (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ..) وهو الوعْدُ نفسه أُعيدَ ذكرُهُ هنا، وليس هذا الوعْدُ هو وقْتَ قيام السّاعة كما ذهب إلى ذلك التفسير الإِسلاميّ في جميع العصور،إِذِ الخلْق كلُّهُم على موعدٍ مع الحشر وليس اليهود وحدهم.

(جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً.) ما أَرْوَعَ وأَصْوبَ تفسيرَ الفَرَّاء، على تقدُّمِه في الزمن (القرن الثّاني للهجرة، تـ207 هجرية) وهو يشرح اللّفظةَ في كتابه: **مَعَاني القُرْآن**، دون أَنْ يقع تحت تأْثير أَيّ رُؤْية تفسيرية موجِّهة، لكنه وقَفَ عند حدود المعنى اللُّغوي فحالفه التّوفيقَ،قال:« لَفِيفاً، من هَاهُنَا وَمِنْ هَاهُنَا.» [30]،أَيْ من أَماكنَ مختلفة متباينة، ولا ينسجم هذا المعنى،بطبيعة الحال، مع البَعْث الأُخروي، الذي ذهب إليه المفسرون، إِذْ لا يُحشَر الناسُ من أماكن مختلفة،كما أَنّ معنى: (لَفِيفاً)، عند المفسّرين أَنفسِهِم:«جماعاتٌ من قبائلَ شَتَّى.»[31].

نعمْ، إِنّ المعنى اللُّغوي المذكور للَّفظة القُرْآنية صحيح، ولكنه مذكور تحت رؤْية تفسيرية خاطئة، وهي الاعتقاد أَنّه "وَعْدُ البعْثِ الأُخْرَوِي"، فحشْرُ الناس يومَ القيامة لا يكون لَفِيفاً، أَيْ من قبائل شَتَّى، إِنّ اللفظة استُعملت لوصف حال عملية دنيوية بحتة، إنها عملية الاستيطان اليهوديّ لأَرض فلسطين، حين يتقاطر إليها اليهودُ منذ بداية القرن العشرين حتى الآن، حاملين جنسيّات مختلفة، لا رابطَ بينهم إِلاّ

الإيديولوجيا الصّهيونية، أَمّا الحشر الأُخْروي، فلا يتميّز الناسُ فيه بانتماءات جنسية ولا قبلية: (فَإِذَا نُفِخَ في الصُّور فلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يومئذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ.) المؤمِنُون/101.

إنّ الإيدلوجيا الصّهيونية التي تسعى إلى تحقيق حُلمِ إسرائيل الكبرى، بواسطة إستراتيجية الاستيطان اليهوديّ لأرض فلسطين، التي تُنفَّذُ على آمادٍ بعيدة وبتخطيط محكم، إنما تسعى، إلى تحقيق الوَعْدِ الإلهيّ الذي لا يمكن تجنُّبه:(وَعْد الآخِرَة.) ليكتشفوا في النِّهاية أَنَّهُمْ: «جِيءَ بهم لَفِيفاً إِلَى قَبْرٍ كَبِيرٍ.» (32).

خاتمة

لا يمكن لأَيِّ فهْمٍ أَوْ تأْويلٍ بَشَرِيّ لظاهرةٍ من الظواهر، أو لخطابٍ لغويّ ما، أَنْ يكون هو معيارَ نفسه، وإلاّ تَسَاوَتْ كلُّ الفُهُوم والتأْويلات والشُّرُوح، من حيث الصّحة والبطلان. وهكذا، فمعيار التأْويل الصحيح لنصّ ما، هو أَنْ يكون مدعوماً بسَنَدٍ موضوعيّ مستقلّ عن ذات المؤوِّل وشخصيته وثقافته ومنزلته العلميّة والاجتماعية، وهذا المعيار، هنا، هو: إمّا ظاهرُ النصُّ اللُّغوي ودلالته المنطقية المتداوَلَة، أوْ وقائعُ التاريخ والمجتمع، ينبغي أَنْ يتقيَّد فهْمُ الإنسان بشيءٍ خارج ذاته، وأَلاّ يكون حرّاً طليقاً في هذا الفهْم وإلاّ قُمْنا بمنْحِ النصوص والظواهر، من المعاني والدَّلالات ما نريده نحن، لا ما تَدلُّ هي عليه.

مفسّرو الإسلام، في القديم والحديث، جعلوا من آيات سُورةِ الإسراء، المعروض لها هنا، مجرّد مناسبة للحديث عن نَكَبَات الشَّعب اليهوديّ بعد مملكة سليمان،كما سُجّلت في أَسْفار العهد القديم، وهذا دون تأمُّل: هل شهِدَ التاريخُ هذه الأحداثَ فعْلاً، وهل دلَّ عليها النصُّ القرآنيُّ،حقيقةً، وعناها؟.

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُوْلا هُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا.) العبارةُ تنسجم مع الآية التّالية: (هُوَ الذي أَخْرَجَ الذينَ كَفَرُوا ،مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوّلِ الحشْرِ، ما ظنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا.)الحشْرُ/2. وعْدُ الأُولى هو أوّلُ الحشْر، اسماً ومكاناً وزماناً.

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً.). قُدُراتُ التّحليل اللُّغوي والبياني،لم تُسعِفِ السَّلَفَ ومَنْ سايرهم من المعاصرين، في تحديد أَنّ ظرْف الزَّمان: إذا، يُخلِّصُ الفِعْلَ الماضي الذي يليه، إلى المستقبل، وبالتّالي: وَعْدُ الأُولى لم يكن قد وقع أثناءَ نزول السُّورة في مكّة؛ لأنها تحدّثتْ عمّا سيقع في المدينة، من نَكْبَةٍ لليهود وإجلائهم عنها إلى الشّام، ووَعْدُ أُولاهما هو نفسه ما عبّر عنه القرآن في موضعٍ آخر بـ أَوّلِ الحشْرِ، في سُورة الحشْرِ، وليس أَوّل الحشْر هي أَرض الشّام؛ لأنَّ الشَّام لا أَوّلَ لها، ولا أَذْرعات ،كما يشيع في تفاسير التُّراث، ولكن الحشْر هو: الجلاءُ عن الأَوْطان، وقد كان ذاكَ أَوَّلَ عذابٍ، من أُمّةِ الإسلام، يصيب اليهود.

كما فشِلتِ القُدُرَاتُ التَّحليلية البيانية، في تعيين: وَعْدِ الآخرة كذلك، ولم تهدِ أحداً إلى أَنّه مرتَّبٌ على وَعْدِ الأُولى وتالٍ له في الزَّمن الأَرضي لا الأُخروي، وهو ما نعيشه نحن اليوم،من لفيف العصابات الصَّهيونية المتقاطرة على أرض فلسطين،

فالتّحليل اللُّغويّ تابعٌ، دوماً، للتصوُّر التأْويلي الذي يمتلكه الشّارح المفسّر في ذهنه، وحيثما وجّه ألفاظَ النصّ نحو المعنى الذي يستسيغه عقلُهُ، جاء التحليلُ اللُّغويُّ خادما مطيعاً للمعنى المتخيَّل مسبقاً، في ذِهن الشارح.

الهوامش

1- الإمام الرّازي،التّفْسِيرُ الكبيرُ، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت.د.ت. سُورةُ الإِسْراء/.5

2- الطَّبَري، جامِعُ البَيَانِ في تَفْسِيرِ القُرْآن، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، طبعة بالأُوفست 1980، الإِسْراء الآية، 5.

3- أُنظُرْ ابن عاشور، التَّحْرِيرُ والتَّنْوِيرُ، ط.الدار التونسية للنشر، تونس 1984، الإسراء، الآية 5 . ويُدرَجُ ابنُ عاشور ضمنَ المفسّرين القدماء، على الرّغم من مُعَاصَرَتِهِ لنا.

4- سيّد قطْب، في ظِلالِ القُرْآن .ط دار الشروق، بيروت1982، الإسراء، الآيةُ 5.

5- الطَّبَري، الإسراء الآية5.

6- قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى،(ذَلِكَ بِأَنهُمْ شَاقُّوا اللهَ ورسَولَهُ.) الحشْر/4، « إنما فعل اللهُ بهم ذلك، وسلَّطَ عليهم رسوله وعبادَهُ المؤمنين، لأنهم خالفوا اللهَ ورسوله، وكذَّبوا بما أَنزل اللهُ على رُسُلِه المتقدّمين في البِشارة بمحمّد (ص) وهُمْ يعرفونه كما يعرفون أَبْناءَهم..».

7- تفسير ابن كثير، البَقَرَة/90.

8- إبراهيم عبد الكريم، إسرائيلُ والنِّظَامُ الغَرْبيّ، مجلة، الوَحْدَة، المجلس القومي للثقافة العربية، العدد مايو 1989، ص.23

9- جاء في لِسَان العَرَب لابن منظور، « العُلُوُّ، العَظَمَةُ والتَّجَبُّر، قال الحسن، الفَسَادُ، والمعاصِي.» وهذا المعنى لا شكَّ قاصرٌ، عن الإِحاطة بالمفهوم القُرْآني للمصطلح، ومما يؤْسَفُ له الاكتفاءُ بذكر نفس المعنى في معجم ظهر بعد الأَوّل بأكثر من أَلْفِ عام،«العُلُوُّ، العَظَمَةُ والتَّجَبُّرُ.»، مُعْجَمُ أَلْفَاظِ القُرْآن الكريم.الهيئة المصرية العامّة للتأليف والنشر.1970 مادّة، عَلَا.

10- رُوجِي غُارودي. مَلَفُّ إِسْرائيل، دراسةٌ للصّهيونية السّياسية، ط1 دار الشروق بيروت 1983، ص.40

11- لعله، هيرودوس الكبير، مَلِكٌ يهوديّ، وليس من بابل،« قَتَلَ الكثير من أَهْلِهِ وأَمَر بذبْحِ أَطْفال بيْت لحم.» المنْجِدُ في الإِعْلامِ، (هيرودوس). توفى سنة 4 ق.م

12- تفسير الطَّبَري، الإسراء/ .5

13- تفسير الطَّبَري، الأَية.

14- أُنْظُرْ، فهْمِي جدعان، أُسُسُ التَّقَدُّم عند مفكريّ الإسلام في العالم العَرَبي الحديث.ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1983، الفصْلَ الأَوَّلَ، مِيَثافيزيقا التَّقَدُّم.

15- الرُّؤْيةُ التَّفْسِيريّة، مجموعةٌ من الآراء والأفكار والمعتَقَدَاتِ، مُسَلَّمٌ بصحّتها في فترةٍ تاريخيةٍ ما، تساهم هذه المجموعةُ في توجيه التفسير وجهةً خاصّة، يظهَر خَطَؤُها بمرور فترة زمنية طويلة في الغالب، فيتغيَّر التفسيرُ تَبَعاً لذلك.

16- التَّحْرِيرُ والتَّنْوِيرُ، الإِسْراءُ /.6

17- أُنظُرْ تفسير الآية في، فَتْح القَدِير، للشّوْكاني، والتّحْرير والتّنوير،لابن عاشور.
18- أُنظُرْ التَّحْرير والتَّنْوير، الآية.
19- يُنظَر في هذا الصَّدَد التفاسير الكبرى الممثِّلة لعهودها التاريخية، تفسير الطَّبَري، الرَّازي، ابن عاشور، المراغي، سيّد قطْب، الصَّابوني، الآية.
20- التَّحْرير والتَّنْوير، الآية.
21- محمّد الطاهر بن عاشور، التَّحْرير والتَّنْوير، الإسراء، 7.
22- الطَّبَري، الآية.
23- أُنظُرْ تفسير الآية في التَّحْرير والتّنْوير، وصَفْوَة التفاسير، للصّابوني، وغيرهما.
24- رَوَى أَبُو داود في كتاب الجهاد، باب، الخروج مع أَئِمّة الجور،حديثًا مروياً عن أَنَس بن مالك، " الجهادُ ماضٍ منذُ بعثني اللهُ تعالى إلى أنْ يقاتل آخرُ أُمّتي الدجّالَ، لا يُبطله جورُ جائر ولا عدْلُ عادِلٍ."
25- محمّد سبيلا، الإديولوجيا، نحوَ نظْرِة تكامُليّة، المركز الثقافي العربي، بيروت 1992، ص 204.
26- أُنظُرْ، تفاسير، الطَّبَري، الرَّازِي، ابن عاشور، سيّد قطب، الآية المذكورة.
27- سيّد قطب، الظِّلال، الآية.
28- على سبيل المثال لا الحصر، يُنظَر، عبد الوهاب المسيري، الإيديولوجيا الصَّهْيُونية، دِرَاسةٌ في عِلْمِ اجتماعِ المعرفة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1982، وكذا، مجلة الوَحْدَة، المجلس القومي للثقافة العربية، السنة 5 مايو 1988، محور العدد، نحو رؤْيا عَرَبيّةٍ للمشروع الصَّهْيُوني. حيث لا يوجد أَيُّ اهتداءٍ بدلالات نصوص القرآن، في الموضوع، في مقالات العدد كلّها، مع الأَسَف.
29- إنها أَرْضُ مِصْرَ في قولٍ للطَّبَري، والرَّازي، والشَّوْكاني، أَوْ أنها، أرضُ الشَّام، في قولٍ آخَرَ للطَّبَري، وابن عاشور، أُنْظُرْ التُّفَاسير المذكورة.
30- أبو زكريا يحي بن زياد الفَرَّاء، مَعَاني القُرْآن،3ج . ط3 . عالم الكتب بيروت 1983.الآية.
31- الزَّمَخْشَري، الآية.
32- أبو القاسم حاج حمْد، العَالميّةُ الإِسْلاميّةُ الثّانية، (ط دار المسيرة د.ت) ص 272.